

الاسلام بين العلم والمدنية 〈٢〉

الامام محمد عبده



اهداءات ٢٠٠١

الدكتور/ القطب محمد طبلية

القاهرة



الامام محمد عبده

الاسلام بين العلم والمدنية

(٢)

التنوير



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٣



أصـــول الاســلام



الاسلام وأصوله

للاسلام فى الحقيقة دعوتان : دعوة الى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ، ودعوة الى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ٠

فأما الدعوة الأولى فلم يعول فيها الا على تنبيه العقل البشرى وتوجيهه الى النظر فى الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع الى ما حواه الكون من النظام والترتيب ، وتعاقد الأسباب والمسببات ليصل بذلك الى أن للكون صانعا واجب الوجود عالما حكيما قادرا ، وأن ذلك الصانع واحد لوحدة النظام فى الأكوان ٠ وأطلق للعقل البشرى أن يجرى فى سبيله الذى سنته له الفطرة بدون تقييد فنبهه الى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتحريك الرياح على وجه يتيسر للبشر أن يستعملها فى تسخير الفلك لمنافعه ، وارسال تلك الرياح لتثير السحاب فينزل من السحاب ماء فتحيا به الأرض بعد موتها وتنبت ما شاء الله من النبات والشجر ، مما فيه رزق الحى وحفاظ حياته ـ كل ذلك من آيات الله عليه أن يتدبر فيها ليصل الى معرفته ٠

ثم قد يزيده تنبيها بذكر أصل للكون يمكن الوصول الى شىء منه بالبحث فى عوالمه ، فيذكر ما كان عليه الأمر فى أول خلق السموات والأرض كما جاء فى آية : (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى افلا يؤمنون) ونحوها من الآيات ٠ وهو اطلاق لعنان العقل ليجرى شوطه الذى قدر له فى طريق الوصول

الى ما كانت عليه الأكوان ، وقد يزيد التنبيه تأثيرا فى ايقاظ العقل ما يؤيد ذلك من السنة ، كما جاء فى خبر من سأل النبى صلى الله عليه وسلم وآله : أين كان ربنا قبل السموات والأرض ؟ فأجابه عليه السلام : « كان فى عماء تحته هواء » (١) والعماء عندهم السحاب ، فنرى القرآن فى مثل هذه المسألة الكبرى لا يقيد العقل بكتاب ، ولا يقف به عند باب ، ولا يطالبه فيه بحساب ، فليقرأ القارىء القرآن يغنني عن سرد الآيات الداعية الى النظر فى آيات الكون : (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء) ؟ • (وآية لهم الأرض الميتة احييناها واخرجنا منها حبا فمنه يأكلون) • (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) وأمثال ذلك • فلو أردت سرد جميعها لأتيت بأكثر من ثلث القرآن بل من نصفه فى مقالى هذا •

يذكر القرآن اجمالا من آثار الله فى الأكوان تحريكا للعبرة ، وتذكيرا بالنعمة ، وحفزا للفكرة ، لا تقريرا لقواعد الطبيعة ، ولا الزاما باعتقاد خاص فى الخليقة ، وهو فى الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذا السبيل ، انظر كيف يقرع بالدليل (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا • (ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من اله ، اذا لذهب كل اله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون) •

فالاسلام فى هذه الدعوة والمطالبة بالايمان بالله ووحدانيته لا يعتمد على شىء سوى الدليل العقلى ، والفكر الانسانى الذى

---

(١) رواه ابن جرير الطبرى والطبرانى وأبو الشيخ فى العظمة عن أبى رزين السائل (رض) والحديث من المتشابهات ولكنه يوافق ما يقرأ علماء القرآن فى التكوين (ثم استوى الى السماء وهى دخان) •

يجرى على نظامه الفطرى (وهو ما نسميه بالنظام الطبيعى) فلا يدهشك بخارق للعادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة الهية ، وقد اتفق المسلمون ـ الا قليلا ممن لا يعتد برأيه فيهم ـ على أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات وأنه لا يمكن الايمان بالرسل الا بعد الايمان بالله ، فلا يصح أن يؤخذ الايمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة فانه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله الا اذا صدقت قبل ذلك بوجود الله وبأنه يجوز أن ينزل كتابا ويرسل رسولا .

وقالوا كذلك : ان أول واجب يلزم المكلف أن يأتى به هو النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله لينتقل منه الى تحصيل الايمان بالرسل وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة .

ـ وأما الدعوة الثانية فهى التى يحتج فيها الاسلام بخارق العادة وما ادراك ما هو خارق العادة الذى يعتمد عليه الاسلام ، فى دعوته الى التصديق برسالة النبى عليه السلام ؟ هذا الخارق للعادة هو الذى تواتر خبره ، ولم ينقطع اثره ، هذا هو الدليل وحده وما عداه مما ورد فى الأخبار سواء صح سنده أو اشتهر أو ضعف أو وهى ، فليس مما يوجب القطع عند المسلمين ، فاذا أورد فى مقام الاستدلال فهو على سبيل تقوية العقد لمن حصل اصله ، وفضل من التاكيد لمن سلمه من اصله .

ذلك الخارق المتواتر المعول عليه فى الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده . والدليل على انه معجزة خارقة للعادة تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر ـ هو انه جاء على لسان أمى لم يتعلم الكتاب ولم يمارس

العلوم ، وقد نزل على وتيرة واحدة ، هاديا للضال مقوما للمعوج ، كافلا بنظام عام لحياة من يهتدى به من الأمم منقذا لهم من خسران كانوا فيه ، وهلاك كانوا أشرفوا عليه وهو مع ذلك من بلاغة الأسلوب على ما لم يرتق اليه كلام سواه ، حتى لقد دعى الفصحاء والبلغاء أن يعارضوه بشيء من مثله فعجزوا ولجئوا الى المجالدة بالسيوف وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به الى أن الجئوهم الى الدفاع عن حقهم وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الاسلام تمد عالمها باضوائها ، وتنشر أنوارها فى أجوائها •

وهذا الخارق قد دعى الناس الى النظر فيه بعقولهم ، وطولبوا بأن يأتوا فى نظرهم على آخر ما تنتهى اليه قوتهم فان وجدوا طريقا لابطال اعجازه أو كونه لا يصلح دليلا على المدعى فعليهم أن يأتوا به قال تعالى : (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) • وقال : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وقال غير ذلك مما هو مطالبة بمقاومة الحجة ، ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رغم من العقل •

معجزة القرآن جامعة من القول والعلم ، وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم ، فهى معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضى فيها ، وأطلقت له حق النظر فى أحنائها ، ونشر ما انطوى فى اثنائها ، وله منها حظه الذى لا ينتقص • فهى معجزة أعجزت كل طوق أن ياتى بمثلها ، ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منها ، أما معجزة موت حى بلا سبب معروف للموت، أو حياة ميت ، أو اخراج شيطان من جسم ، أو شفاء علة من بدن ، فهى مما ينقطع عنده العقل ويجمد لديه الفهم ،

وانمـا ياتى بهـا الله على يد رسـله لاسكات أقوام غلبهم الوهم ، ولم يضىء عقـولهم نور العـلم ، وهكذا يقيـم الله بقدرته من الآيات للامم على حسب الاسـتعدادات ٠

ثم ان الاسلام لم يتخذ من خوارق العـادات دليلا عـلى أن الحق لغير الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسلام ، ولم ترد فيـه كلمـة واحدة تشير الى أن الداعين اليـه يمكنهم أن يغيروا شيئا من سنة الله فى الخليقة ، ولا حاجة الى بيـان ذلك فهـو اشهر من أن يحتاج الى تعـــريف ٠

الاصل الأول للاسـلام

النظر العقلى لتحصيل الايمان : فأول أساس وضـع عليـه الاسلام هو النظر العقلى ٠ والنظر عنده هو وسيلة الايمان الصحيح فقد أقامك منـه على سـبيل الحجة وقاضـاك الى العقـل ، ومن قاضاك الى حاكم فقـد أذعن الى سلطته ، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثـور عليـه ؟

بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السـنة : أن الذى يستقصى جهده فى الوصول الى الحـق ثم لم يصل اليه ومات طالبا غير واقف عنـد الظن فهـو ناج ٠ فأية سـعة لا ينظـر اليها الحـــرج أكمل من هذه السـعة ؟

الاصـل الثـانى

تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض : أسرع اليك بذكر أصل يتبع هذا الأصل المتقدم قبل أن انتقل الى غيره : اتفق أهل الملة الاسلامية الا قليلا ممن لا ينظر اليه على انه اذا تعارض العقل والنقل أخذ بمادل عليه العقـل ، وبقى فى النقل طريقـان :

طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر الى الله فى علمه ، وطريق تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل ·

وبهذا الأصل الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبى صلى الله عليه وسلم مهدت بين يدى العقل كل سبيل ، وازيلت من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال الى غير حد ، فماذا عساه أن يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب الى ماهو أبعد من هذا ؟ وأى فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم أن لم يسعهم هذا الفضاء ؟ ان لم يكن فى هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ولا سماء باجرامها وأبعادها ·

الأصل الثالث

البعد عن التفكير : هلا ذهبت من هذين الأصلين الى ما أشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم وهو اذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الايمان من وجه واحد حمل على الايمان ، ولا يجوز حمله على الكفر ، فهل رأيت تسامحا مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولا لا يحتمل الايمان من وجه واحد من مائة وجه ؟ اذا بلغ به الحمق هذا المبلغ كان الاجدر به أن يذوق حكم محكمة التفتيش البابوية ويؤخذ بيديه ورجليه فيلقى فى النار ·

الأصل الرابع

الاعتبار بسنن الله فى الخلق : يتبع ذلك الأصل الأول فى الاعتبار – وهو الا يعول بعد الانبياء فى الدعوة الى الحق على غير الدليل ، والا ينظر الى العجائب والغرائب وخوارق العادات – أصل

آخر وضع لتقويم ملكات الأنفس القائمة على طريق الاسلام واصلاح اعمالها فى معاشها ومعادها ـ ذلك هو أصل العبرة بسنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر وفى آثار سيرهم فيهم • فمما جاء فى الكتاب العزيز مقررا لهذا الأصل : (لقد خلت من قبلكم ســنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ـ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولن تجد لسنتنا تحويلا ـ فهل ينظرون الا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) ـ (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) الخ •

فى هذا يصرح الكتاب ان لله فى الأمم والأكوان سننا لا تتبدل والسنن الطرائق الثابتة التى تجرى عليها الشئون وعلى حسبها تكون الآثار ، وهى التى تسمى شرائع أو نواميس ، ويعبر عنها قوم بالقوانين • مالنا ولاختلاف العبارات ؟ الذى ينادى به الكتاب أن نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هــو نظام واحــد لا يتغير ولا يتبدل ، وعلى من يطلب السعادة فى هذا الاجتماع أن ينظر فى أصول هــذا النظام حتى يرد اليها أعماله ويبنى عليها ســيرته وما يأخذ به نفسه • فان غفل عن ذلك غافل فلا ينتظرن الا الشقاء ، وان ارتفع الى الصالحين نسبه ، أو اتصل بالمقربين سببه • فمهما بحث الناظر وفكر ، وكشف وقرر ، وأتى لنا بأحكام تلك السنن ، فهو يجرى مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه ، ولا تنفر منه ، فلم لا يعظم تسامحها معه ؟

جاء الاسلام لمحو الوثنية عربية كانت أو يونانية او رومانية ، أو غيرها ، فى اى لباس وجدت ، وفى أية صورة ظهرت ، وتحت أى اسم عرفت ، ولكن كتابه عربى والعربية لغة أولئك الوثنيين أعدائه الاقربين • وفهم معناه موقوف على معرفة أوضاع اللسان ولاتعرف أوضاعه حتى تعرف مواضع استعمال كلمة وأساليبه ،

ولن يكون ذلك الا بحفظ ما نطق به العرب من منظوم ومنثور ، وفيه من آدابهم وعاداتهم واعتقاداتهم ما يعيد عند الناظر فى كلامهم صورة كاملة من جاهليتهم ، وما فيها من الوثنية وأطوارها . هكذا صنع المسلمون الأولون ـ ركبوا الأسفار ، وانفقوا الأعمار ، وبذلوا الدرهم والدينار ، فى جمع كلام العرب وحفظه وتدوينه وتفسيره ، توسلا بذلك الى فهم كتابهم المنزل فكانوا يعدون ذلك ضربا من ضروب العبادة ، يرجون من الله فيه حسن المثوبة ، فكان من طبيعة الدين الا يحتقر العلم الذى ولد هو فيه . بل قد يكون من الدين علم مللبس منه (١) متى حسنت النية فى تناوله وهذا باب من التسامح لايقدر سعته الا أهل العلم به وأما المسيحيون الأولون فقد هجروا لسان المسيح عليه السلام سريانيا كان أو عبرانيا (أو آراميا) وكتبوا الاناجيل باللغة اليونانية ولم يكتب بالعبرية الا انجيل متى ، فيما يقال . الا ترى أن اسم الانجيل نفسه يونانى ؟ كل ذلك كراهة لليهود الذين كان ينطق المسيح بلسانهم ويعظهم بلغتهم وتحرجا من النظر فى دواوين آدابهم ، وما توارثوا من عاداتهم .

الأصل الخامس

قلب السلطة الدينية : أصل من أصول الاسلام انتقل اليه ـ وما أجله من أصل ـ قلب السلطة الدينية والاتيان عليها من أساسها .

هدم الاسلام بناء تلك السلطة ومحا أثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم . لم يدع الاسلام لاحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة أحد ولا سيطرة على ايمانه على أن

(١) أى قد يعد الاسلام من الدين الذى يتقرب به الى الله ـ الاشتغال بعلم غير دينى بنية صالحة كنفع الناس به .

الرسول عليه السلام كان مبلغا ومنذرا لا مهيمنا ولا مسيطرا ، قال الله تعالى : « فذكر انما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر » ولم يجعل لاحد من أهله أن يحل ولا أن يربط لا فى الأرض ولا فى السماء • بل الايمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده ، ويرفع عنه كل رق الا العبودية لله وحده ، وليس لمسلم ــ مهما علا كعبه فى الاسلام ــ على آخر ــ مهما انحطت منزلته فيه ــ الا حق النصيحة والارشاد • قال تعالى فى وصف المفلحين : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » وقال : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » • وقال : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » • فالمسلمون يتناصحون ثم هم يقيمون أمة تدعو الى الخير ــ وهم المراقبون عليها ــ يردونها الى السبيل السوى اذا انحرفت عنه • وتلك الأمة ليس لها عليهم الا الدعوة والتذكير والانذار والتحذير ، ولا يجوز لها ولا لاحد من الناس أن يتتبع عورة أحد • ولايسوغ لقوى ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد وليس يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته او يتلقى اصول ما يعمل به عن احد الا عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم •

لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله وعن رسوله من كلام رسوله ، بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف وانما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم ، كقواعد اللغة العربيّة وآدابها وأساليبها وأحوال العرب خاصة فى زمان البعثة وما كان الناس عليه زمن النبى صلى الله عليه وسلم • وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحى ، وشىء من الناسخ والمنسوخ من الآثار • فان لم تسمح له حاله بالوصول الى ما يعده لفهم الصواب من السنة والكتاب فليس عليه الا أن يسأل العارفين بهما وله بل عليه أن يطالب

المجيب بالدليل على ما يجيب به سواء كان السؤال فى أمر الاعتقاد او فى حكم عمل من الأعمال ٠

فليس فى الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه ٠

السلطان فى الاسلام

لكن الاسلام دين وشرع ، فقد وضع حدودا ، ورسم حقوقا ، وليس كل معتقد فى ظاهر أمره بحكم يجرى عليه فى عمله ٠ فقد يغلب الهوى ٠ وتتحكم الشهوة ٠ فيغمط الحق ٠ ويتعدى المعتدى الحد ٠ فلا تكمل الحكمة من تشريع الاحكام الا اذا وجدت قوة لاقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضى بالحق ٠ وصون نظام الجماعة ٠ وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى فى عدد كثير فلابد أن تكون فى واحد وهو السلطان او الخليفة ٠

الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم ٠ ولا هو مهبط الوحى ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة ٠ نعم شرط فيه أن يكون مجتهدا أى أن يكون من العلم باللغة العربية وما معها — مما تقدم ذكره — بحيث يتيسر له أن يفهم من الكتاب والسنة ما يحتاج اليه من الاحكام ، حتى يتمكن بنفسه من التمييز بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد ، ويسهل عليه اقامة العدل الذى يطالبه به الدين والأمة معا ٠

هو — على هذا — لا يخصه الدين فى فهم الكتاب والعلم بالاحكام بمزية ، ولا يرتفع به الى منزلة ، بل هو وسائر طلاب الفهم

سواء ، انما يتفاضلون بصفاء العقل ، وكثرة الاصابة فى الحكم (١)
ثم هو مطاع مادام على المحجة ونهج الكتاب والسنة والمسلمون له
بالمرصاد ، فاذا انحرف عن النهج اقاموه عليه واذا أعوج قوموه
بالنصيحة والاعذار اليه(١) «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق»(٢)
فاذا فارق الكتاب والسنة فى عمله وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره
ما لم يكن فى استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه (٣) ٠

فالأمة أو نائب الأمة هو الذى ينصبه والأمة هى صاحبة الحق
فى السيطرة عليه وهى التى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها فهو
حاكم مدنى من جميع الوجوه ٠

ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما
يسميه الافرنج (ثيوقراطى) أى سلطان آلهى فان ذلك عندهم هو
الذى ينفرد بتلقى الشريعة عن الله وله حق الاثرة بالتشريع وله فى
رقاب الناس حق الطاعة ، لا بالبيعة ، وما تقتضيه من العدل وحماية
الحوزة بل بمقتضى الايمان فليس للمؤمن مادام مؤمنا أن يخالفه ،
وان اعتقد أنه عدو لدين الله ، وشهدت عيناه من أعماله مالا ينطبق
على ما يعرفه من شرائعه ، لإن عمل صاحب السلطان الدينى وقوله
فى أى مظهر هما دين وشرع ، وهكذا كانت سلطة الكنيسة فى

---

(١) من شواهد ذلك ارتفاع قدر العلماء على الخلفاء الذين قصروا عنهم فى الفهم والعلم ، الم يأتك نبأ الأمام مالك مع الخليفة هرون الرشيد رحمهما الله ؟ وكيف أنزل الامام الخليفة عن المنصة وأقعده مع العامة عند القاء الدرس ، لأنه فى رتبة المستفيد ٠

(١) من شواهد ذلك قول الخليفة أبى بكر رضى الله عنه فى خطبته « وان زغت فقومونى » ٠

(٢) حديث رواه البخارى ومسلم وغيرهما ٠

(٣) مثال ذلك أن يكون له عصبية أقوى من الأمة يخشى أن يبيدها بها ٠ ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح ٠

الوسطى • ولا تزال الكنيسة تدعى الحق فى هذه السلطة كما سبقت الاشارة اليه •

كان من أعمال التمدن الحديث الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية فترك للكنيسة حق السيطرة على الاعتقاد والأعمال فيما هو من معاملة العبد لربه : تشرع وتنسخ ما تشاء ، وتراقب وتحاسب كما تشاء ، وتحرم وتعطى كما تريد ، وخول السلطة المدنية حق التشريع فى معاملات الناس بعضهم لبعض ، وحق السيطرة على ما يحفظ نظام اجتماعهم ، فى معاشهم لا فى معادهم ، وعدوا هذا الفصل منبعا للخير الأعم عندهم •

ثم هم يهمون فيما يرمون به الاسلام من أنه يحتم قرن السلطتين فى شخص واحد • ويظنون أن معنى ذلك فى رأى المسلم أن السلطان هو مقرر الدين ، وهو واضع أحكامه وهو منفذها ، والايمان آلة فى يده يتصرف بها فى القلوب بالاخضاع وفى العقول بالاقناع ، وما العقل والوجدان عنده الا امتاع ، ويبنون على ذلك أن المسلم مستعبد لسلطانه بدينه وقد عهدوا أن سلطان الدين عندهم كان يحارب العلم ، ويحمى حقيقة الجهل ، فلا يتيسر للدين الاسلامى أن يأخذ بالتسامح مع العلم مادام من أصوله أن اقامة السلطان واجبة بمقتضى الدين وقد تبين لك أن هذا كله خطأ محض وبعد عن فهم معنى ذلك الأصل من أصول الاسلام • وعلمت أن ليس فى الاسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة الى الخير والتنفير عن الشر ، وهى سلطة خولها الله لادنى المسلمين يقرع بها أنف اعلاهم ، كما خولها لاعلاهم يتناول بها من أدناهم ، ومن هنا تعلم « الجامعة » أن مسألة السلطان فى دين الاسلام ليست مما يضيق به صدره ، وتحرج به نفسه عن احتمال العلم • وقد تقدم ما يشير الى ما صنع الخلفاء العباسيون والامويون الاندلسيون

من صنائع المعروف مع العلم والعلماء • وربما أتينا على شيء آخر منه فيما بعد •

يقولون : ان لم يكن للخليفة ذلك السلطان الدينى أفلا يكون للقاضى أو للمفتى أو شيخ الاسلام ؟ وأقول : ان الاسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الاحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهى سلطة مدنية قررها الشرع الاسلامى ، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على ايمان أحد أو عبادته لربه ، أو ينازعه فى طريق نظره •

الأصـل السادس

حماية الدعوة لمنع الفتنـة : قالوا ان الدين الاسـلامى دين جهادى شرع فيه القتال ولم يكن شرع فى الـدين المسيحى ، ففى طبيعة الدين روح الشدة على من يخالفه ، وليس فيهـا ذلك الصبر والاحتمال اللذان تقضى بهما شريعة المسالمة ، وهى الشريعة التى وردت فى كثير من الوصايا المسيحية « من ضربك على خدك الايمن فادر له خدك الآخر ، من سخرك ميلا فسر معـــه ميلين » (متى ٥ : ٣٩ ، ٤٠) ونحو ذلك ، حتى لقد طلبت فيها محبة العدو وهى مما لا يدخل تحت الاختيار بل ولا محبة الصديق ، وانما الاختيارى العدل بين الاعداء والأولياء • لكن فى ملكوت الله كل شيء مستطاع ولا شيء فيه بمستحيل •

قلنا : لكن انظروا هل دفع الشر بالشر عند القدرة عليه وعند عدم التمكن من سواه خاص بالدين الاسلامى أو هو فى طبيعة كل قادر يعذر الى خصمه ؟ ليس القتل فى طبيعة الاسلام بل فى طبيعته العفو والمسامحة : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ولكن القتال فيه لرد اعتداء المعتدين على الحق وأهله الى أن يأمن

شرهم ، ويضمن السلامة من غوائلهم ، ولم يكن ذلك للاكراه على الدين ولا للانتقام من مخالفيه ، ولهذا لا تسمع فى تاريخ الفتوح الاسلامية ماتسمعه فى الحروب المسيحية ، عندما اقتدر أصحاب « شريعة المسالمة » على محاربة غيرهم من قتل الشيوخ والنساء والأطفال (١) ٠

لم تقع حرب اسلامية بقصد الابادة كما وقع كثير من الحروب بهذا القصد بأيدى المسيحيين ٠ وانما كان الصبر والمسالمة دينا عندما كانت القدرة والقوة تعوزان الدين ٠ وغاية مايقال ان العناية الالهية منحت الاسلام فى الزمن القصير من القوة على مدافعة أعدائه ما لم تمنحه لغيره فى الزمن الطويل ٠ فتيسر له فى شبيبته مالم يتيسر لغيره الا فى كهولته أو شيخوخته ٠

---

(١) لعل ما يحدث اليوم فى فى الجزائر من الفرنسيين وفى كينيا من الانجليز خير شاهد على ذاك ٠

فى الحرب والسلم

الاسلام الحربى كان يكتفى من الفتح بادخال الأرض المفتوحة تحت سلطانه ثم يترك الناس وما كانوا عليه من الدين ، يؤدون ما يجب عليهم فى اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد ، وانما يكلفهم بجزية يدفعونها لتكون عونا على صيانتهم والمحافظة على أمنهم فى ديارهم ، وهم فى عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار لا يضايقون فى عمل ، ولا يضامون فى معاملة • وكان خلفاء المسلمين يوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا عن العامة فى الصوامع والأديار لمجرد العبادة ، كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال ، وكل من لم يعن على القتال • جاءت السنة المتواترة بالنهى عن ايذاء أهل الذمة وبتقرير مالهم من الحقوق على المسلمين « لهم مالنا وعليهم ما علينا » و « من آذى ذميا فليس منا » (١) • واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الاسلام ولست أبالى اذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الاحكام ، عندما بدأ الضعف فى الاسلام ، — وضيق الصدر من طبع الضعيف — فذلك مما لا يلصق بطبيعته ، ويخلط بطينته •

المسيحية السلمية كانت ترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها تراقب أعمال أهله وتخصهم دون الناس بضروب من

(١) ورد بهذا المعنى أحاديث فى الصحاح والسنن وايذاء الذمى والمعاهد محرم بالاجماع وروى الخطيب من حديث ابن مسعود « من آذى ذميا فأنا خصمه ومن كنت خصمه ، خاصمته يوم القيامة » •

المعاملة لا يحتملها الصبر مهما عظم • حتى اذا تمت لها القدرة على طردهم ، بعد العجز عن اخراجهم من دينهم وتعميدهم ، أجلتهم عن ديارهم ، وغسلت الديار من آثارهم ، كما حصل ويحصل فى كل ارض استولت عليها أمة مسيحية استيلاء حقيقيا •

لا يمنع غير المسيحى من تعدى المسيحى الا كثرة العدد ، أو شدة العضد ، كما شهد التاريخ ، وكما يشهد كاتبوه • ذلك كله لانه ما جاء ليلقى سلاما بل سيفا ، ولانه جاء ليفرق بين البنت وأمهـا والابن وأبيه (١) والاسلام يقول كتابه فى شأن الوالدين المشركين : « وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لـك به علم فلاتطعهمـا

---

(١) هذا نص انجيل متى فى هذا • ومثله قول انجيل لوقا ١٤ ـ ٢٥ و ٢٦ « وقال لهم « يسوع » ان كان أحد يأتى الى ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وأخوته واخواته حتى نفسه أيضا فلا يقدر ان يكون لى تلميذا » وفى الباب ١٩ من هذا الانجيل ما نصه « ٢٧ أما أعدائى أولئك الذين لم يريدوا ان أملك عليهم فأتوا بهم الى هنا واذبحوهم قدامى » وأما أسفار التوراة فقد جاء فيها نحو ذلك من القسوة على الأهلين المخالفين وعلى سائر المحاربين • قال فى ١٣ : ٩ من سفر تثنية الاشتراع « واذا غواك سرا أخوك ابن أمك أو ابنك أو ابنتك أو امرأة حضنك أو صاحبك الذى مثل نفسك قائلا : نذهب ونعبد الهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك الهة الشعوب القريبين منك أو البعيدين عنك من أقصاء الأرض الى أقصائها فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه ولا ترق له ولا تستره بل قتلا تقتله • الخ » •

وفى سفر التثنية أيضا « ٢٠ : ١٠ ـ ١٦ » ما نصه « حين تقرب من مدينة لتحاربها أدعها الى الصلح فان اجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كلها غنيمتها فتغتنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك الذى أعطاك الرب الهك ، وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جدا منك التى ليست من هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب الهك نصيبا فلا تستبق منهم نسمة ما » •

وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الى » فهو فى اشتداده على المهدين لامته لا يقضى بالفرقة بين أب وابن ولا بين ام وبنت ، بل يامر الأولاد المؤمنين أن يصحبوا الوالدين المشركين بالمعروف فى الدنيا مع محافظتهم على دينهم ·

فانت ترى الاسلام من جهة يكتفى من الأمم والطوائف التى يغلب على أرضها بشيء من المال اقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلبه عليهم ، وبأن يعيشوا فى هدوء لا يعكرون معه صفو الدولة ولا يخلون بنظام السلطة العامة · ثم يرخى لهم بعد ذلك عنان الاختيـــار فى شئونهم الخاصة بهم ، ولا رقيب عليهم فيهـا الا ضمائرهم · ومن جهة أخرى ينهى أفراد المؤمنين عن مقاطعـــة ذوى قرباهم من المشركين ، ويطالبهم بحسن معاملتهم ففى طبيعته أن يكل أمر الناس فى سرائرهم الى ربهم . وفى طبيعته أن يجير من لا يعتقد عقيدته ، ويحمى من لا يتبع سنته ، وأن كان فى عمى من الجهالة ، وخبل من الضلالة ·

افترى أنه يصعب عليه بعد ذلك أن يحمل العلم والعلماء ، ويضيق به حلمه عن صنع الجميل بالفضل والفضلاء ، ممن ينفق عمره فى تقرير حقيقة ، أو كشف غامض أو تبيين طريقة ؟ كلا ثم كلا ، فمن بحث ونقب ، وسبر ونقر ، أو شق الأرض أو ارتقى الى السماء ، فهو فى أمن من أن يعرض الاسلام له فى شيء من عمله ، الا أن يحدث شغبا ، أو يفسد أدبا ، فعند ذلك تمتد يد الملك لرد كيد الكائد ، واصلاح الفاسد بسماح من الدين ·

الاصـل السـابع

مودة المخالفين فى العقيدة

المصاهرة : اباح الاسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية ، نصرانية

كانت أو يهودية ، وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها ، والقيام بفروض عبادتها ، والذهاب الى كنيستها أو بيعتها ، وهى منه بمنزلة البعض من الكل ، وألزم له من الظل ، وصاحبته فى العز والذل ، والترحال والحل ، بهجة قلبه ، وريحانة نفسه ، وأميرة بيته ، وأم بناته وبنيه ، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه· لم يفرق الدين فى حقوق الزوجية، بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية · ولم تخرج الزوجة الكتابية باختلافها فى العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى « ومن آياته أن جعل لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » فلها حظها من المودة ، ونصيبها من الرحمة ، وهى كما هى · وهو يسكن اليها كما تسكن اليه ، وهو لباس لها كما أنها لباس له · أين أنت من صلة المصاهرة التى تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة على ما عهد فى طبيعة البشر ؟ وما أجلى ما يظهر من ذلك بين الأولاد وأخوالهم وذوى القربى لوالدتهم ، أيغيب عنك ما يستحكم من ربط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح ، الذى لم يعهد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه ؟ ولا يخفى على صحيح النظر أن تقرير التسامح على هذا الوجه فى نشأة الدين مما يعود القلوب على الشعور بأن الدين معاملة بين العبد وربه ، والعقيدة طور من أطوار القلوب يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب ، فهو الذى يحاسب عليها ، وأما المخلوق فلا تطول يده اليها ، وغاية ما يكون من العارف بالحق أن ينبه الغافل ، ويعلم الجاهل ، وينصح الغاوى ، ويرشد الضال · لا يكفى فى ذلك نعمة العشير ، ولا يسلك به مسالك التعسير ، ولا يقطع أهل النصير ، ولا يخالف سنة الوفاء ، ولا يحيد عن شرائع الصدق فى الولاء ·

ماذا ترى فى الزوجة الكتابية لو كانت من أهل النظر العقلى

وذهبت مذهبا يخالف مذهب زوجها ؟ أفينقص ذلك من مودته لها ؟ أو يضعف من شعور الرحمة التي أفاضها الله بينه وبينها ؟ فاذا كان المسلم يتعود الاحتمال ، بل يتعود المحبة والنصرة لمن يخالفه في عقيدته ودينه وملته ، ويألف مخالطته وعشرته وولايته ونصرته ، أتراه لا يحتمل أن يرى بجواره من يعمل نظره في نظـــام الخليقة ليصل منه الى اكتشاف سر أو تقرير أصـــل في علم ، أو قاعـــدة لصناعة ؟ ان كان قد يخالف ظاهرا مما يعتقد ، أو يميل الى رأى غير الذي يجد ؟ أفلا يسع هذا ما يسع المجاهر بالخلاف ، وهو معه على ما رأيت من الائتلاف ؟

لو ذهبت أعد ما في طبيعة الاسلام من عناصر وأركان كلهـا تؤلف مزاج الكرم ، وتكون حقيقة المسامحة مع العلم لاطلت على القارىء اكثر مما أطلت . ولهذا أرى من الواجب على أن أختم القول بذكر أصل أشرت اليه ولا غنى لما نحن فيه عن ذكره .

الأصـل الثامن

الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة

الصـحة : الحيـاة في الاسـلام مقدمة على الدين . أوامر الحنيفية السمحة ان كانت تختطف العبد الى ربه ، وتملأ قلبه من رهبه ، وتفعم أمله من رغبه ، فهي مع ذلك لا تأخذه عن كسبه ، ولا تحرمه من التمتع به ، ولا توجب عليه تقشف الزهادة ، ولا تجشمه في ترك اللذات ما فوق العادة .

صاحب هذا الدين صلى الله عليه وسلم لم يقل « بع ماتملك واتبعني » ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من مال « الثلث ،

والثلث كثير ، انك ان تذر ورثتك اغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » •

الرخص : فرض الصوم على المؤمنين لكن اذا خشى منه المرض أو زيادته أو زادت المشقة فيه جاز تركه ، بل قد يجب اذا غلب على الظن الضرر فيه •

الوضوء أو الغسل من شروط الصحة للصلاة الا اذا خشي منه الضرر أو عرضت مشقة في تحصيل الماء •
القيام مما لا تصح الصلاة الا به الا اذا أصابت المصلى مشقة فيه فيسقط ، ويصلى قاعدا •

السعى الى الجمعة واجب الا اذا كان هناك وحل غزير ، أو مطر كثير ، أو ما يوجب تعبا ومشقة فيسقط • وهكذا تجد القاعدة قد عمت « صحة الابدان ، مقدمة على صحة الاديان » فترى الدين قد راعى فى أحكامه سلامة البدن كما أوجب العنـــاية بســـلامة الروح •

الزينة والطيبات : أباح الاسلام لاهله التجمل بأنواع الزينة والتوسع فى التمتع بالمشتهيات ، على شريطة القصد والاعتـــدال وحسن النية ، والوقوف عند الحدود الشرعيـــة ، والمحافظـــة على صفات الرجولة ، جاء فى الكتاب العزيز « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين(★) قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصـــل الآيات لقوم يعلمون (★) قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون » (سورة الاعراف) •

ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التى يذكرنا بها فضله ، ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره ، كما قال : « والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون (★) ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (★) وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس (★) ان ربكم لرءوف رحيم (★) والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون » ثم قال « وهو الذى سخر البحر لتاكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » سورة النحل ٠

الاقتصاد : ووضع قانونا للانفاق وحفظ المال فى قوله : « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا (★) ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » سورة الاسراء ٠

النهى عن الغلو فى الدين : وخشى على المؤمن أن يغلو فى طلب الاخرة فيهلك دنياه وينسى نفسه منها فذكرنا بما قصه علينا ان الاخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم الله علينا فى الدنيا اذ قال « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الأرض (★) ان الله لا يحب المفسدين » سورة القصص ٠

فترى أن الاسلام لم يبخس الحواس حقها ، كما أنه هيأ الروح لبلوغ كمالها ٠ فهو الذى جمع للانسان اجزاء حقيقية واعتبره حيوانا ناطقا لا جسمانيا صرفا ولا ملكوتيا بحتا ، جعله من أهل الدنيا كما هو من أهل الآخرة ٠ واستبقاه من أهل هذا العالم الجسدانى ، كما دعاه الى ان يطلب مقامه الروحانى ٠ أليس يكون بذلك وبما بينه فى قوله (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا)

قد أطلق القيد عن قواه ، لتصل من رفه الحياة « مع القصد » الى منتهاه ؟ والنفوس مطبوعة على التنافس قد عرز فيها حب التسابق فيما تعتقده خيرا أو تجده لذيذا او تظنه نافعا ٠

وليس فى الغريزة الانسانية أن يقف بها الطلب عند حد محدود أو ينتهى بها السعى الى غاية لا مطلع للرغبة وراءها ، بل خصها الله بالمكنة من الرقى فى أطوار الكمال من جميع وجوهه الى ما شاء الله أن ترقى بدون حد معروف ٠

فاذا جمع سائق الانفس ومزجيها ومرشدها وهاديها ، بين شاحذين ، شاحذ التمتع بمتاع الحياة الدنيا ، وشاحذ الرغبة فى النعيم الدائم فى الآخرة ، فقد جمع لها كل ما يسمو بها عن الرضاء فى الدنيا بالدون وفى الآخرة بعذاب الهون ، فترى كل نفس تمضى مع استعدادها بشهامة فؤادها مضـــاء الزميـــع لا تخشى العثرة بالوعيد ، ولا تقعد عن مطلبها قعدة الرعديد فتطلب منافعها من هذا الكون الذى وجدت فيه ووجد لها ، فتسير فى مناكب الأرض ولا تكتفى عن الكل بالبعض ، وتبحث فى تربتها ، ولا يقف بهـــا ظاهرها عن باطنها ، ولايحجبها ظهرها عن مد يدها الى ما فى جوفها ، ولا تجد ما يصدها عن النظر فى الهواء ، والبحث فى الماء ، والاهتداء بنجوم السماء بعد معـرفة مواقعهـــا وحركاتها فى مداراتها واستقامتها وانحرافها وظهورها وخنوســـها ، وبالجملة فكل مستعد لوجه من وجوه النظر أو الولوج فى باب من أبواب العلم ٠ ينطلق الى حيث يبلغ به استعداده اما للنجاة من ضرورة واما لاستتمام منفعة او استكمال لذة ، لا يجد من نواهى الدين ما يصـــده عن مطلب ، ولا ما يكف يده عن تناول رغيبة أين هـــذا من ذلك الذى لا يرى الخلاص الا فى مجافاة هذا العالم ولذائذه ، ويجد ان الغنى والثروة من الحجب التى لا تخرق ، تحول بينه وبين ملكوت السموات ٠

كيف يتسنى للمسلم ان يشكر الله حق شكره ، اذا لم يضع العالم باسره تحت نظر فكره لينفذ من ظاهره الى سره ، ويقف على قوانينه وشرائعه ، ويستخدم كل ما يصلح اخدمته فى توفير منافعه ؟ كيف يشكر الله اذا توانى فى ذلك وقد أرشده الله فى كتابه وبسنة نبيه الى أن عالمه انما خلق لاجله ، وقد وضعه الله تحت تصرف عقله ؟ انظر الى لطف الاشارة فى الآية المتقدمة « قل من حرم زينة الله » الخ حيث قال : (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) فأهل العلم هم الذين يعرفون مقدار نعم الله تعالى فيما يرفه به معيشتهم ، ويجمل به هيئتهم ، ويجلى به زينتهم •

المسلمون مسوقون بنابل من دينهم الى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد ، ولا يرضيهم من ذلك مادون الغساية ، ولا يتوفر شيء من وسائل ذلك الا بالعلم ــ فهم محفوزون أشد الحفز الى طلب العلم وتلمسه فى كل مكان ، وتلقيه من أية شفة وأى لسان فاذا لاقاهم العالم فى أى سبيل ، أو عثروا به فى أى جيل ، أو ظهر لهم من أى قبيل ، هشوا له وبشوا ، ونصبوا اليه وكمشوا وشدوا به أواصرهم ، وعقدوا عليه خناصرهم ، ولا يبالون ماتكون عقيدته ، اذا نفعتهم حكمته « الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها » الم يأتهم عن ربهم : (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الألباب) ألم يسمعوا فى وصفهم قوله : (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) •

ذلك شأن المسلم مع العلم اذا كان مسلما حقا ، وذلك ما تنجر اليه طبيعة دينه ، وحديث « اطلبوا العلم ولو بالصين » (١) ان كان

---

(١) رواه ابن عدى فى الكامل • والبيهقى فى شعب الايمان والمدخل وابن عبد البر فى العلم • والخطيب فى الرحلة • والديلمى فى مسند الفردوس ، وغيرهم وله طرق كثيرة يقوى بعضها بعضا •

فى سند لفظه الى النبى صلى الله عليه وسلم مقال فسند معناه متواتر فانه سند القرآن نفسه ، فان الله يفضل العلم وأهل العلم بدون قيد ولا تخصيص ، فالمسلم مطالب بطلب العلم ولو فى الصين ولو لم يكن فى الصين مسلم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ٠

لا شىء ينقلب عند النفس الانسانية لذة بنفسه ، وان كان فى اول أمره مطلوبا لغيره ، مثل العلم ، تطلب العلم أولا لحاجتك اليه فى تقويم معيشة ، أو ترفيه حال أو دفاع عن نفس وملة ، ثم لاتلبث اذا أوغلت فيه أن تجد اللذة فى العلم نفسه، فتصير اللذة بتحصيله والوصول الى دقائقه غاية تقصد بنفسها وتضمحل فيها كل غاية سواها ، وعلة ذلك ظاهرة فان العلم مسرح نظر العقل ، والعقل قوة من أفضل القوى الانسانية ، بل هى أفضلها على الحقيقة ، وقد وضع لها العليم الحكيم لذة ، كما منح لكل قوة سواها نعيما ولذة ، ولست فى حاجة الى تعديد لذة البصر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس فالحيوان يعرفها بله الانسان ، وكلما عظم اختصاص القوة بالنوع عظمت لذته باستعمالها فيما وجهت له ، فيمكنك أن تستنتج من ذلك أن لا شىء عند الانسان الذ من كشف المجهول ، واحراز المعقول وقد سمح الاسلام للمسلم أن يتمتع فى هذه الحياة الدنيا بما يلذ له مع القصد والاعتدال ٠ افلا يكون من لذائذه ومتممات نعيمه أن يسيح فى مملكة العلم ليمتع عقله كما يسيح فى بسيط الأرض ليكسب رزقه ويقيت أهله ؟ على ان العلم كان من ضرورات معيشة المسلم او حاجياتها كما ذكرنا فاذا طفق يستنبط ماءه للضرورة ، ويستجلى سناءه للحاجة ، فلا يلبث أن يصير هو حاجة نفسه ، وشاغله عن حاجات حسه حتى يدخل معه فى رمسه ، كما وقع لكثير من المسلمين ٠ قال أمام جليل من ائمتهم « طلبنا العلم لغير الله فابى أن يكون الا لله » ٠

نتائج هذه الأصول

الى اين افضت طبيعة الاسلام بالمسلمين ؟ وماذا كان اثرها في أسلافهم الأولين ؟ فتح عمرو بن العاص رضى الله عنه مصر واستولى بجيشه على الاسكندرية بعد لحاق النبى صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى بست سنوات فى رواية ، وتسع سنوات فى رواية أخرى ، والاسلام فى طلوع فجره وتفتح نوره ، فكان من بقايا ما تركت الأزمان الأولى رجل مسيحى من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوى ، كان فى بدء أمره ملاحا يعبر الناس بسفينته وكان يميل الى العلم بطبيعته ، فاذا ركب معه بعض أهل العلم اصغى الى مذاكرتهم ثم اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن ٤٠ سنة فبلغ فيه ما لم يبلغه الناشئون فيه من طفولتهم ، وقد أحسن من العلم فنونا كثيرة حتى عد من فلاسفة وقته واطبائه ومناطقته .

يقول كثير من مؤرخى الغربيين ومؤرخى المسلمين : ان عمرو ابن العاص سمع به فاستدناه منه واكرمه لعلمه ، ووقعت بينهما محبة ظهر أمرها واشتهر حتى قال أحد فلاسفة الغربيين : (ان المحبة التى نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوى ترينا مبلغ ما يسمو اليه العقل العربى من الأفكار الحرة والرأى العالى ، بمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية ودخل فى التوحيد المحمدى أصبح على غاية من الاستعداد للجولان فى ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع) .

خالط المسلمون أهل فارس وسورية وسواد العراق وأدخلوهم في أعمالهم ولم يمنعهم الدين عن استعمالهم حتى كانت دفاترهم بالرومية فى سورية ولم تغير بالعربية الا بعد عشرات من السنين فاحتكت الأفكار بالأفكار ، وافضت سماحة الدين الى أن أخذ المسلمون فى دراسة العلوم والفنون والصنائع ٠

اشتغال المسلمين

بالعلوم الأدبية والعقلية

بالعلوم الأدبية والعقلية

بعد ٢٠ سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام اخذ الخليفة على بن ابى طالب كرم الله وجهه يحض على تعليم الآداب العربية ويطلب وضع القواعد لها لما رأى من حاجة الناس الى ذلك ، وأخذ المسلمون يتحسسون نور العلم فى ظلام تلك الفتن استرسالا مع ما يدعوهم اليه دينهم ، وتنبههم لطلبه شريعتهم ، وان كانت الحروب الداخلية التى اشتعلت نارها فى أطراف بلادهم للنزاع فى أمر الخلافة قد شغلتهم عن كل شيء من مصالحهم ، فانها لم تشغلهم عن تلمس العلوم والتناول منها بالتدريج على سنة الفطرة ، فالبراعة فى الآداب : من علم بوقائع العرب وتاريخهم ، وقول الشعر ، وانشاء البليغ من النثر ، قد بلغت فى خلافة بنى أمية مبلغا لم تبلغه أمة قط فى مثل مدتها ، وكان الخلفاء الامويون يعلون منزلتها ، ويرفعون مكانات الشعراء والخطباء والعلماء بالسير ، ثم ظهرت آثار العلوم العقلية فى آخر دولتهم ، وترجمت جملة من الكتب العقلية والصناعية قبل نهاية القرن الأول ٠

نقل الخلفاء الامويون دار الخلافة من المدينة الى الشام ولم يسيروا فى الزهد سيرة الخلفاء الراشدين ، فقد جاء رسول من الفرس الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فلما سأل عنه دل عليه فذهب اليه فاذا هو نائم على الأرض تحت نخل البقيع بين الفقراء ، وجاءت رسل الملوك الى معاوية رحمه الله فاذا هو فى قصر مشيد محلى البنيان باجمل ما يكون من الصنعة العربية

مزين بالجنات والرياض وينابيع الماء ، مفروش بأحسن الفرش ، يرى الناظر فيه أفخر الاثاث والرياش ، ولم يكن معاوية في ذلك قد خالف الدين أو حاد عن طريقة ، وانما تناول مباحا ، وتمتع برخصة آتاه الله أياها ، ولا يخفى ما في ذلك من ترويج فنـــون الابداع في الصنعة على اختلاف ضروبها .

اشتغالهم بالعلوم الكونية

انقضت دولة بني أمية والناس في ظلمات من الفتن كما قلنا ودالت الدولة لبني العباس واستقرت في نصابها من آل بيت النبي قرب نهاية الثلث الأول من القرن الثاني للهجرة (ســـنة ١٣٢) ثم نقل المنصور عاصمة الملك الى بغداد فصارت بعد ذلك عاصمة العلم والمدنية أيضا ، وأخذ المنصور أيضا ينشيء المدارس للطب والشريعة ، وكان قد جعل من زمنه ما ينفقه في تعلم العلوم الفلكية ، وأكمل حفيده الرشيد ما شرع فيه وأمر بان يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها ، وجاء المأمون فوصلت به دولة العلم الى أوج قوتها ، ونالت به اكبر ثروتها ، ويقال انه حمل الى بغداد من الكتب المكتوبة بالقلم ما يثقل مائة بعير ، وكان من شروط صلحه مع ميشيل الثالث أن يعطيه مكتبة من مكاتب الاستانة فوجد مما فيها من النفائس كتاب بطليموس في الرياضة السماوية فأمر المأمون في الحال بترجمته وسموه بالمجسطي ، ولا يسهل على كاتب احصاء ماترجم من كتب العلوم على اختلافها في دولة بني العباس ابناء عم الرسول صلى الله عليه وسلم .

انشاؤهم دور الكتب

وقد أخذت دول الاسلام تعتني بدور الكتب عناية لم يسبقها مثلها من دول سواها ، حتى كان في القاهرة في أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوي على مائة الف مجلد ، منها ستة آلاف في الطب والفلك

لاغير • وكان من نظامها أن تعار بعض الكتب للطلبة المقيمين فى القاهرة ، وكان فيها كرتان سماويتان (احداهما) من الفضة يقال أن صانعها بطليموس نفسه وأنه أنفق فيهـا ثلاثة آلاف دينـار (والثانية) من البرنز • ومكتبة الخلفاء فى أسبانيا بلغ ما فيها ستمائة الف مجلد وكان (فهرسها) أربعة وأربعين مجلدا • وقد حققوا انه كان فى أسبانيا وحدها سبعون مكتبة عمومية ، وكان فى هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة •

وبعض الخاصة كانوا يولعون بالكتب ويجعلون دورهم معاهد دراسة لما تحتوى عليه • يقال ان سلطان بخارى دعا طبيبا أندلسيا ليزوره فأجابه أن ذلك لا يمكنه لان كتبه تحتاج الى أربعمائة جمل لتحملها وهو لا يستغنى عنها كلهـا • وكان حنين بن اسـحاق النسطورى فى بغداد ممن جعل فى داره مكتبة عامة يفد اليها طلاب العلوم العقلية والرياضيـة وكان يتبرع بمذاكرتهم فيما يريدون المذاكرة فيه •

انشاؤهم المدارس للعلوم

غطى بسيط المملكة الاسلامية على سعتها بالمدارس • نقول « على سعتها » لانها زادت فى السعة على المملكة الرومانية بكثير ، فكنت تجد المدارس فى كل الأقطار : فى المغول ، فى التتار من جهة المشرق • فى مراكش ، فى فاس ، فى أسـبانيا من جهـة المغرب •

وكانت طريقة الأساتذة فى التدريس ان كل مدرس يعد درسه ويكتب فى الموضوع الذى يلقى الدرس فيه مايريد أن يكتب ، ثم يلقيه على التلامذة وهم يكتبون عنه ثم تكون هذه الدروس كتبا وأمالى تنشر بين الناس فى كل علم • وهنا نبادر الى القول بأن المؤرخين قد اجمعوا على أن جميـع المقالات والكتب كانت تنشر ويتداولها

الناس بدون أدنى مراقبة ولا حجر ولا نقص شيء مما كتب صاحب الكتاب ، غير أن مؤرخا واحدا رأيته ذكر أنه قد وضع قانون فى بعض الممالك الاسلامية لنشر كتب العقائد مقتضاه الا ينشر منها شيء الا باذن ، على أنى لا أعلم شـيئا من ذلك وقـع فى الممالك الاسلامية أيام كان الاسلام اسلاما ٠

نرجع الى الكلام فى المدارس الاسلامية : يقول : (جيبون) فى كلامه على حماية المسلمين للعلم فى الشرق وفى الغرب : « ان ولاة الاقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء ، فى أعلاء مقـام العلم والعلماء ، وبسط اليد فى الانفاق على اقامة بيـوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبـه ، وكان من أثر ذلك أن ذوق العلم ووجدان اللذة فى تحصيله قد انتشر فى نفوس الناس من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة ٠ انفق وزير واحـد لاحد السـلاطين (هو نظام الملك) مائتى ألف دينار على بناء مدرسة فى بغـداد وجعل لها من الريع الذى يصرف فى شئونها خمسـة عشر الف دينار فى السنة ، وكان الذين يغذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء فى المملكة . وابن أفقر الصناع فيها ، غير أن الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة وابن الغنى يكتفى بمال أبيه ، والمعلمون كانوا ينقدون رواتب وافرة » ٠

انقسمت الممالك الاسلامية فى زمن من الأزمان الى ثلاثة أقسام وتنازع الخلافة ثلاث شيع كان العباسيون فى آسيا (الشرق) والأمويون فى الاندلس من أوريا (الغرب) والفاطميون فى مصر من أفريقيا (الوسط) ولم يكن تنافس هذه الدول الثلاث مقصورا على الملك والسلطان ، ولكن كان التنافس أشد التنافس فى العلم والأدب ، وكان مرصد سمرقند قائما فى ناحية المشرق يشير الى ما كان عليه المشرقيون من العناية برياضة الافلاك ، ومرصد جيرالد فى الأندلس يجيبه بأن أهل المغرب ليسوا بأحط منهم فى الادراك ٠

جميع المدارس فى البلاد الاسلامية اخذت نظام الامتحان فى المدارس الطبية عن مدرسة الطب فى القاهرة ، وكان من اشـــد النظامات وادقها ، ولم يكن لطبيب ان يمـــارس صناعته الا على شريطة أن تكون بعد شهادة بانه فاز فى الامتحان على شدته ، واول مدرسة طبية انشئت فى قارة أوربا على هذا النظام المحكم هى التى انشاها العرب فى (ساليرن) من بلاد ايطاليا واول مرصد فلكى أقيم فى أوربا هو الذى أقامه العرب فى اشبيلية من بلاد أسبانيا ٠

ولع المسلمون بالعلوم الكونية على اختلافها ، والفنون الأدبية بجميع أنواعها ، حتى القصص والأساطير الخيالية ، فى الاحوال الاجتماعية ، وابتدءوا باخذ العلم عن اليونانية والسريانية ، واخذوا ينقلون كتب الأولين من تلك الالسن الى اللغة العربية بالترجمـــة الصحيحة ٠ وكان مترجموهم فى أول الأمر مسيحيين وصابئين وغيرهم ، ثم تعلم كثير من علماء المسلمين اللسان اليونانى واللاتينى وكتبوا معاجم فى اللسانين وذلك كله ليأخذوا العلوم من أصولها ، وينقلوها الى لسانهم على حسب ما يصل اليه علمهم فيها ٠ وكان المعلمون لابناء العظمـــاء فى أول الأمر من المسيحيين واليهـــود ، ثم أنشئت المدارس الجامعة وكان المدرسون فيها من كل ملة ودين ، كل يعلم العلم الذى عرف هو بالبراعة فيه ٠

علوم العرب واكتشافها

كان علم العرب فى أول الأمر يونانيا ، ولكنه لم يلبث كذلك الا دون قرن واحد ثم صار عربيا ، ولم يرض العـــربى أن يكون تلميذا لارسطو وافلاطون او اقليدس أو بطليمرس زمنـــا طـــويلا كما بقى الأوربى كذلك عشرة قرون كاملة من التاريخ المسيحى ٠

قالوا : ان (باكون) هو أول من جعل التجربة والمشـــاهدة قاعدة للعلوم العصرية أو اقامها مقـــام الرواية عن الأســـاتذة والتمسك بأراء المصنفين ، وأطلق العلم من رق التقليد ذلك حق فى أوربا وأما عند العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبنـــاء العلم عليها فى أواخر القرن الثانى من الهجرة ·

أول شىء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الأمم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجربة ، والا يكتفوا بمجـــرد المقدمات العقلية فى العلوم مالم تؤيدها التجربة ، حتى لقد نقـــل جوستاف لوبون عن أحد فلاسفة الأوربيين أن القاعدة عند العرب هى « جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفا » وعند الأوربى الى ما بعد القرن العاشر من التاريخ المسيحى « اقرأ فى الكتب وكرر ما يقول الأساتذة تكن عالما » فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلبت الحال ، وماذا أعقب من سوء المآل ·

قال (ديلامبر) فى تاريخ علم الهيئة « اذا عددت فى اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراصدين أمكنك أن تعد فى العرب عددا كبيرا غير محصور » وأما فى الكيمياء فلا يمكنك أن تعد مجربا واحدا عند اليونانيين ، ولكنك تعد من المجربين مئين عند العرب · ولهذا عدت الكيمياء الحقيقية من أكتشاف العرب دون سواهم · وقد كانوا يعدون الهندسة والفنون والرياضة من الآلات المنطقية ، يستعملونها فى الاستدلال على القضايا النظرية ، وهى من أصـــدق الادلة فى الايصال الى المجهولات كما هو معروف ·

والعرب هم أول من استعمل الساعات الدقاقة للدلالة على أقسام الزمن ، وهم اول من أتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض ·

وقد اكتشفوا قوانين لثقل الأجسام جامدها ومائعهـــا حتى وضعوا لها جداول فى غاية الدقة والصحة ، كما وضعوا جداول للارصاد الفلكية ، وكانت تلك الجداول معروفة يطلع عليها الناظرون في سمرقند وبغداد وقرطبة حتى لقد وصلوا بتلك القوانين الى ما يقرب من اكتشاف الجاذبية ٠

ولا يمكننى فى مقالى هذا أن أعد ما اكتشف العرب ولا مازادوه فى العلوم على اختلاف أنواعها فذلك يحتاج الى سفر كبير ، وقد أحصى ذلك أهل المعرفة والانصاف من فلاسفة الأوربيين ومؤرخيهم ، وربما يتيسر لابناء الأمة العربية أن ينشروا ذلك لاخوانهـم حتى يعرفوا ما كان عليه أسلافهم ، ولكننى أذكر كلمة قالها بعض حكماء الغربيين (١) ٠

« تأخذنا الدهشة أحيانا عندما ننظر فى كتب العرب فنجـــد آراء كنا نعتقد أنها لم تولد الا فى زماننا ، كالرأى الجديد فى ترقى الكائنات العضوية وتدرجها فى كمال أنواعها ، فان هذا الرأى كان مما يعلمه العرب فى مدارسهم وكانوا يذهبون به الى أبعد مما ذهبنا ، فكان عندهم عاما يشمل الكائنات غير العضوية والمعادن ٠ والأصل الذى بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقى المعادن فى اشكالها ٠ قال الخازنى اذا سمع الشعب الجاهل ما يقال بين العلماء : ان الذهب قد تقلب فى الأشكال المختلفة حتى صار ذهبا ظن من هذا أنه مر فى صور معادن أخرى فكان رصاصا ثم قصديرا ثم صفرا ثم فضـة ثم صار بعد ذلك ذهبا ولا يعلم أن الفلاسفة اذا قالوا ذلك فانمـا يقصدون منه ما أرادوه من قولهم فى الانسان انه وصل الى حالته

---

(١) هو الفيلسوف درابر الأمريكانى ٠

الحاضرة بالتدريج ومن طريق الترقى وهم لم يعنوا بقولهم هـذا أنه تقلب فى صور الأنواع المختلفة كأن كان ثورا ثم حمارا ثم فرسا ثم قردا ثم صار بعد ذلك انسانا » ٠

ويقول الفيلسوف جوستاف لبون : « ان العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » ٠

وهنا أنكر على بعض فلاسفتهم ما نقلوه عن ابن رشد من أنه ذهب فى حرية الرأى الى نقض أصل الدين وقال : ان الروح لابقاء لها بعد فناء الجسد وانما الذى يبقى هو أرواح الأنواع ٠ فان هذا خطأ عرض لهم من سوء فهم كلامه فى بيان بقـــاء الأنواع دون الأشخاص فانه قال كما قال أرسطو وغيره : ان الأشخاص توجد وتفنى وأما الأنواع فهى باقية لا تزول : وهذا باب آخر لا يغاير بالمرة ما استنتجوا منه كما أخطئوا فى قولهم عنه انه كان يعتقد بأن الله روح العالم يظهر فى صوره والكل يرجع اليه بمعنى انه يفنى فى ذاته ولا يبقى فى العالم باق آخر ٠ وهو يقرب من قولهم السابق ٠ فان ابن رشد كان مسلما يعرف أن الاسلام لا ينافى العلم وانما ينافى هذا الضرب من الوهم ، الذى لم يسقط فيه أحد الا من عثرة فى طريق العلم ، أو الاسترسال مع الخيال ٠ وكثير ممن سكروا بهذا الرأى أفاقوا منه ٠ ولكن كتب ابن رشد التى بين أيدينا تبعد بنا عن نسبة هذا الرأى اليه كما سبق بيانه ، ولكنى لا أنكر نسبته لو نسب الى ابن سبعين وهو ممن أخذ عن تلاميذ ابن رشد فان فى كلامه ما يدل على ذلك ٠

ويقول فيلسوف آخر : « ان العلوم التى تلقاها العـرب عن اليونانيين وغيرهم وكانت ميتة بين دفات الدفاتر ، مقبـــورة بين جدران المكاتب ، أو مخزونة فى بعض الرءوس كأنها أحجار ثمينة فى بعض الخزائن ، لاحظ للانسانية منها سوى النظر اليها ــ صارت

عند العرب حياة الآداب ، وغذاء الأرواح ، وروح الثروة ، وقوام الصنعة ، ومهمازا للقوى البشرية يسوقها الى كمالها الذى أعدت له • وليس فى الأوربيين من درس التاريخ وحكم العقل ثم ينكر ان الفضل ـ فى اخراج أوربا من ظلمة الجهل الى ضياء العلم ، وفى تعليمها كيف تنظر وكيف تتفكر وفى معرفتها أن التجربة والمشاهدة هما الاصلان اللذان يبنى عليهما العلم ـ انما هو للمسلمين وآدابهم ومعارفهم التى حملوها اليهم وادخلوها من أسبانيا وجنوب ايطاليا وفرنسا عليهم • وكان من حظ العلم العربى والأدب المحمدى عندما دخلا الى ايطاليا ان البابا كان غائبا لان كرسيه كان قد انتقل الى فرنسا فى أفنيون نحو سبعين سنة فدب العلم الى شمال ايطاليا واستقر به القرار هناك ، ان شـوارع باريس لم تفرش بالحجارة الا فى القرن الثانى عشر وقد رصت بالبلاط على نحو مارصت به مدن أسبانيا » اهـ •

ويقول آخر : « لا أدرى كيف أعطانا الاسلام فى مدة قرنين عددا من الفلكيين يطول سرد أفراده وان الكنيسـة تسلطت على العـالم المسيحى اثنى عشر قـرنا فى أوربا ولم تمنحنا فلكيـا واحدا » •

هذا للنماء والزكاء العلمى لم يكن خاصا بطائفة دون طائفة بل كان الناس فى التمكن من تناوله سـواء ، وانما كان التفاضـل بالجد والعمل ، والفضل فى ذلك كله لحلم الخلفاء وأعمالهم وسماحة الدين ويسره وسهولته على أهله وأهل ذمته ، قال بعض فلاسـفة الغربيين قولا يعرفه الحق وتثبته المشاهدة : « ان شعوب الأرض لم ترقط فاتحا بلغ من الحلم هذا المبلغ (يريد فاتحى الاسلام على اختلافهم) ولا دينا بلغ فى لينه ولطفه هذا الحد » •

تشجيع العلم والعلماء

ان الخلفاء الذين يقال عنهم انهم رؤساء دين وحكام سياسة معا كانوا هم بأنفسهم المتعلمين للعلوم الداعين الى تعلمها ، كانوا العالمين العاملين · كان خليفة كالمأمون يضطهد أحيانا أعداء الفلسفة ، وقد عرف التاريخ كثيرين من أرباب الشهرة الذين قضوا فى سجنه الشهور أو السنين ، لانهم كانوا يعادون الفلسفة ظنا منهم أن منها ما يعدو على الدين فيفسده ، هل رأيت فى غير الاسلام رئيسا دينيا يضطهد أعداء العلم وجفاة الفلسفة ؟ لعلك لا تجده أبدا ·

كان أهل العلم والأدب عامة يجدون من الاحترام عند الخلفاء والأمراء والخاصة ما يليق بهم كيفما كانت حالهم ، وأضرب المثل بالشيخ أبى العلاء المعرى ، لشهرته بين الناس بما يشبه الزندقة ·

يذكر على بن يوسف القفطى أن صالح بن مرداس ــ صاحب حلب ــ خرج الى المعرة وقد عصى أهلها عليه ، فنازلها وشرع فى حصارها ورماها بالمنجنيق ، فلما أحس أهلها بالغلب ، سعوا الى أبى العلاء بن سليمان وسألوه أن يخرج ويشفع فيهم ، فخرج ومعه قائد يقوده فأكرمه صالح واحترمه ، ثم قال : ألك حاجة ؟ قال : الأمير ــ أطال الله بقاءه ــ كالسيف القاطع لان مسه ، وخشن حده ، وكالنهار البالغ ، قاظ وسطه وطاب برده (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) فقال له صالح : قد وهبتها لك ، ثم قال : أنشدنا شيئا من شعرك لنرويه ، فأنشده على البديهة أبياتا فيه ، فترحل صالح · فانظر كيف وهب الأمير بلدا عصى أهله لفيلسوف معروف بما هو عنه معروف ·

ولو ذكرت مانال العلماء والفلاسفة عند الامراء والخلفاء لطال بى المقال أكثر مما طال ، وفيما سبق كفاية لمكتف ٠

ازالة شبهتين

قد يتوهم قوم ان الاضطهاد قد يظهر فى مقت العامة وخلقهم ما يخلقون من المفتريات على أهل العلم والفكر الحر ، وهمس بعضهم فى آذان بعض ، وتغامزهم على أهل الفضل ، ولمزهم أياهم بالالقاب ، بل واحتقارهم فى بعض الاحيان ٠ وهذا النوع منه عند المسلمين بلا نكير ٠ وهو خطأ ظاهر لان هذا النوع – ممن يكره أهل العلم – لا تخلو منه أرض ولا تطهر منه بلاد مهما بلغ أهلها من الحرية ، ومهما بلغ ذوق العلم من نفوس أهلها ، فان القائمين على عقيدة الكاثوليك الى اليوم فى أرض فرنسا نفسها يمقتون الفلاسفة الذين يظهرون بمعاداة للكنيسة ، ويكتبون مايوهن قواعدها وقد يختلق عليهم أحزاب الكاثوليك مالم يقولوه ، ويرون ان النظر فى كتبهم لا يجوز فى شريعة الدين ، ونحن لا نرتاب فى أن نحو هذا كان عند المسلمين أيام كانت سوق الفلسفة رائجة عندهم ، ولكنه ليس من الاضطهاد فى شىء ، وانما هى نفرة الانسان مما لا يعرف . مع ترك صاحبه وشأنه يمضى فى سبيله الى حيث يشاء ٠

يقول آخرون : ان التاريخ يروى لنا أن بعض أرباب الأفكار قد أخذه السيف لغلوه فى فكره ، فلم يترك له من الحرية ما يتمتع به الى منتهى ما يبلغ به ، وليس يصح أن ينكر ما صنع الخليفة المنصور وغيره بالزنادقة ٠

وأقول : ان كثيرا من الغلو اذا انتشر بين العامة أفسد نظامها واضطرب أمنها ، كما كان من آراء الحلاج وأمثاله (١) فتضطر

---

(١) ذكر امام الحرمين فى كتابه « الشامل » فى أصول الدين انه كان بين الحلاج والجنابى رئيس القرامطة اتفاق سرى على قلب الدولة . وان ذلك هو السبب الحقيقى فى قتل الحلاج ٠

السياسة للدخول فى الأمر لحفظ أمن العامة ، فتأخذ صاحب الفكر ، لا لانه تفكر ولكن لانه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصه ، بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه ، مع أن غيره فى غنى عما يراه هو حقا له ، ونخشى الفتنة اذا استمر مدعى الحرية فى غلوائه ، فلهذا يرى حفاظ النظام ان أمثال هؤلاء يجب أن ينفى منهم المجتمع ، صونا له عما يزعزع أركانه • ونحن نرى الفلسفة اليوم تضطهد الدين هذا الضرب من الاضطهاد • ألم تقض الحكومة الفرنسية على الراهبين والراهبات ان تكون جمعياتهم ومدارسهم تحت سيطرة الحكومة ؟ وألا ينشأ شىء منها الا باذن من الحكومة ، ومن لم يخضع لذلك تنحل جمعيته وتغلق مدارسه بقوة السلاح ، وقد ينفى من البلاد كما نفى كثيرون فى سنين سابقة (١) ولكن هل يسمى هذا اضطهادا ؟ كلا ، انما الاضطهاد حق الاضطهاد هو اضطهاد محكمة التفتيش واضطهاد رؤساء الاصلاح بعدها فى أول نشأتهم

ماذا يقول القائلون ؟ ان التعليم عند المسلمين كان غريبـــا أمره ، يكاد يكون خفيا سره ، مسجد أو مدرسة تابعـة لمسـجد ، يجلس فيها للتدريس الفقيه والمتكلم والمحدث والنحوى والمتـــأدب والفيلسوف والفلكى والمهندس ، ينتقل الطالب من بين يدى الفقيه ليجلس بين يدى الفيلسوف ، ومن مجلس الحـــديث الى مجلس الأدب ، واذا وقعت مذاكرة بينهم فى مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها من الاقناع والالزام ، وسقطت قيمة الغلو فى التعبير ، وأخذ التسامح بينهم مأخذه •

كان عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة وأشدهم صلابة فى أصول مذهبه ، ومع ذلك هو من مشايخ الامام البخارى صاحب الصحيح وكانت له منزلة عند المنصور تعلو كل ذى منزلة عنده ، حتى قال

(١) أغرب من هذا أن أحد الأساتذة فى جامعة اميركية قرر فيها نظرية داروين للمرولة فانكرها عليه جمهور الطلبة لمخالفتها للتوراة فطرد من المدرسة •

له يوما وهو خارج من بين يديه « رميت لكل الناس حبا فلقطوا الا اياك يا عمرو بن عبيد » فانظر كيف كان لامام من أئمة السنة أن يصل سنده فى الحديث برئيس من رؤساء المعتزلة ولا يرى فى ذلك بأسا ؟

اذا عد عاد بعض رجال العلم الذين أخذتهم القسوة فى الاسلام وقتلتهم حماقة الملوك باغراء الفقهاء وأهل الغلو فى الدين ، فما عليه الا أن ينظر فى أحوالهم فيقف لأول وهلة على أن الذى اثار أولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين ، وان الغيرة عليه ليست هى الباعث لهم على الوشاية بهم ، وطلب تنكيلهم . وانما تجد الحسد هو العامل الأول فى ذلك كله والدين آلة له · ولهذا لا ترى مثل ذلك الاذى يقع الا على قاضى قضاة كابن رشد (ورجوع الحاكم الى العفو عنه وانزاله منزلته دليل على ذلك) أو وزير ، أو جليس خليفة أو سلطان ، أو ذى نفوذ عظيم بين العامة · وهذا كما يقع من الفقهاء مثلا لايذاء الفلاسفة ، يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض ، لاهلاك بعضهم بعضا ، كما يشهد به العيان . ويحكى لنا التاريخ ، فليس هذا كذلك معدودا من معنى اضطهاد الدين للفلسفة ، لان التحاسد أكثر ما يقع بين من لا دين لهم على الحقيقة وان لبسوا لباسه · وانما ذلك الاضطهاد هو الذى يحمل عليه محض الاختلاف فى العقيدة أو ظن المخالفة للدين فى شىء من العلم أو العمل لضيق الدين عن أن يسع المخالف بجانبه وهذا لم يقع فى الاسلام ، اللهم الا أن يكون حادث لم يصل الينا ·

هذه طبيعة الدين الاسلامى عرضت عليك فى أهم عناصرها ومقومات مزاجها · وهذا كان اثرها فى العالم الشرقى والغربى وهذه سعة فضل الدين وقوته على احتمال مخالفيه وتيسيره لأولئك

المخالفين أن يحتموا به متى رضوا بأن يستظلوا بظله ، هل فى هذا
خفاء على ناظر ؟ وهل يرضى لبيب لنفسه أن ينكر الضوء الباهر ؟
افلا يبسم الاسلام عجبا وهو فى أشد الكرب لعقوق ابنائه ، من اديب
لم يكن يعده من أعدائه ، ان لم يحسبه فى أحبائه ، عندما يراه
يسدد سهمه اليه ، ويجور ، كما يجور الجائرون فى حكمه عليه ؟؟



الاســـلام

فى أوائل القرن العشرين



الاحتجاج بالمسلمين على الاسلام

ربما يسأل سائل فيقول : سلمنا أن طبيعة الاسلام تأبى اضطهاد العلم بمعناه الحقيقى وانه لم يقع من المسلمين الأولين تعذيب ، ولا احراق ، ولا شنق لحملة العلوم الكونية ، ومقومى العقول البشرية ، ولكن أليس العلماء من المسلمين اليوم أعداء العلوم العقلية ، والفنون العصرية ، أو ليس الناس تبعا لهم ؟ أفلا يكون للاديب عذره فيما يراه ويسمعه حوله ؟ ألم يسمع بأن رجلا فى بلاد اسلامية غير البلاد المصرية(١) كتب مقالا فى الاجتهاد والتقليد وذهب فيه الى ما ذهب اليه أئمة المسلمين كافة ، ومقالا بين فيه رأيه فى مذهب الصوفية ، وقال انه ليس مما انتفع به الاسلام بل قد يكون مما رزىء به أو ما يقرب من هذا ـ وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبله ـ فلما طبع مقاله فى مصر تحت اسمه هاج عليه حملة العمائم ، وسكنة الأثواب العباعب ، قالوا أنه مرق من الدين ، أو جاء بالافك المبين ، ثم رفع أمره الى الوالى فقبض عليه وألقاه فى السجن ! فرفع شكواه الى عاصمة الملك وسأل السلطان أن يأمر بنقله الى العاصمة ليثبت براءته مما اختلق عليه بين يدى عادل لا يجور ، ومهيمن على الحق لا يحيف ، الخ ما يقال فى الشكوى فأجيب طلبه ، لكن لم ينفعه ذلك كله ، فقد صدر الأمر هناك أيضا بسجنه ولم يعف عنه الا بعد أشهر ، مع أنه لم يقل الا ما يتفق مع أصول الدين ، ولا ينكره القارىء والكاتب ، ولا الآكل والشارب .

ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسى (والد السنوسى صاحب الجغبوب) كتب كتابا فى أصول الفقه زاد فيه بعض

---

(١) هذا الرجل هو السيد عبد الحميد الزهراوى الحمصى الشهير رحمه الله .

مسائل على أصول المالكية ، وجاء فى كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة ، وقد يرى ما يخالف رأى مجتهد أو مجتهدين • فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية (رحمة الله تعالى) وكان المقدم فى علماء الجامع الأزهر الشريف(١) فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسى ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين ، واتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين ، وربما كان يجترىء الأستاذ على طعن الشيخ السنوسى بالحربة لو لاقاه وانما الذى خلص السنوسى من الطعنة ، ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة ، وارتكاب الجريمة باسم الشريعة ، هو مفارقة السنوسى للقاهرة قبل أن يلاقيه الأستاذ المالكى •

هل غاب عن الأذهان ما كان ينشر فى الجرائد من نحو ثلاث سنين بأقلام بعض علماء الجامع الأزهر من المقالات الطويلة الاذيال الواسعة الاردان ، فى استهجان ادخال علم تقويم البلدان (الجغرافية) بين العلوم التى يتلقاها طلبة الجامع الأزهر ؟ وكان كتاب تلك المقالات يعرضون بمن أشار بادخال هذا العلم وغيره بين تلك العلوم وأنه انما يريد الغض من علوم الدين (٢) ألم تنشر فى العام الماضى فصول بأقلام بعضهم تشير الى مطعن فى عقيدة البعض الآخر وارادة التشهير به مع أنه لم يجهر بمنكر ولم يقل قولا يبعد من الكتاب والسنة ؟

ألم يحمل الينا الرواة ما عند علماء الأفغان والهند والعجم من شدة التمسك بالقديم ، والحرص على ماورثوه عن آبائهم الأقربين ، واقامة الحرب على كل من حاول أن يزحزحهم أصبعا

(١) هو الشيخ عليش الذى كان ينكر على السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده أيضا طريقتهما فى تحقيق المسائل الشرعية على طريقة السلف •

(٢) يعنى الأستاذ بهذا نفسه فهو الذى أشار بتعليم هذه العلوم •

عما كان عليه سلفهم ، وان كان فى البقاء عليه تلفهم ، وما عليه الحال اليوم فى حكومة المغرب من الغلو فى التعصب ، والمعاقبة بقطع بعض الأعضاء فى شرب الدخان ، أو القتل فى كلمة ينكرها السامعون ، وان أجمع عليها المسلمون الآخرون ؟

ثم الا يتخيل المتامل أنه يسمع من جوف المستقبل صخبا ولجبا ، وضوضاء وجلبة ، وهيعات مضطربة ، اذا قيل أنه ينبغى لطلبة الأزهر أن يدرسوا طرفا من مبادىء الطبيعة أو يحصلوا جملة من التاريخ الطبيعى ؟ ألا تقوم قيامة المتقين ، ألا يصيحون اجمعين اكتعين أبتعين : هذا عدوان على الدين ، هذا توهين لعقدة المتين ، هذا تغرير بأهله المساكين ، ولا يزالون يشيدون بهذا الى ألا يبقى شىء عرف له اسم فى اللغة الا الصقوة بهذه البدعة فى زعمهم .

هل هذه الحال جديدة على المسلمين ، حتى يقال أنها عارض عرض عليهم ، أو مرض من الأمراض الوافدة اليهم ؟ لا يسهل على من يعرض أحوال المسلمين تحت نظره من قرون متعددة أن يظن أن هذه الحال من العلل الطارئة على أمزجة الأمم ، خصوصا عندما يجد الوحدة فى الصفات ، والشمول فى جميع الاعتبارات ، فلو أخذ مسلما من شاطىء الاطلانطيقى ، وآخر من تحت جدار الصين لوجد كلمة واحدة تخرج من فميهما وهى (أنا وجدنا اباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) وكلهم أعداء لكل مخالف لما هم عليه ، وان نطق به الكتاب ، واجتمعت الآثار .

اللهم الا فئة زعمت أنها نفضت غبار التقليد ، وأزالت الحجب التى كانت تحول بينها وبين النظر فى آيات القرآن ومتون الأحاديث لتفهم أحكام الله منها ، ولكن هذه الفئة أضيق عطنا وأحرج صدر

من المقلدين ، وان أنكرت كثيرا من البدع ، ونحت عن الدين كثيرا مما أضيف اليه وليس منه ، فانها ترى وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتقيد به ، بدون التفات الى ما تقتضيه الأصول التى قام عليها الدين ، واليها كانت الدعوة ، ولأجلها منحت النبوة فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية السليمة أحباء (١) ٠

هل يمكن أن ينكر أحد جمود الفقهاء ووقوفهم عند عبارات المصنفين على تباينها واختلاف واضطراب الآراء فى فهمها واذا عرضت حادثة من الحوادث ولم يكن لمصنف معروف رأى فيها أحجموا عن ابداء الرأى ، واجتهدوا فى تحويلها عن حقيقتها الى أن يتفق مع قول معروف فى كتاب من الكتب ، حتى لقد جاء طالب علم من بلد من بلاد الدول العثمانية وأراد الالتحاق بأحد الأروقة فى الجامع الأزهر فوقع الشك : هل بلده مما لأهله استحقاق فى ذلك الرواق على حسب نص الواقف ؟ فقال قائل لشيخ الرواق : ان كتب تقويم البلدان تشهد بأن البلد داخل فى شروط الواقف ٠ فقال : اننى لا أقنع بما فى تلك الكتب ، وانما الذى يصح أن آخذ به هو أن يكون فقيه (ممن مات) قال ان هذا البلد من قطر كذا ، وهو الذى وقف الواقف على أهله ٠ واذا قيل لأحدهم : ان الأئمة أنفسهم لم يعينوا مواقع البلدان ولم يضعوا لنا جدولا لبيان ما يحويه كل قطر وبيان الحدود التى ينتهى اليها ، وأن أصول ديننا تسمح لنا بأن نأخذ بأقوال العلماء فى هذه الفنون (وهم منا) ويتواتر الأخبار وما أشبه ذلك من البديهيات قال : انما أريد نصا فقهيا ، لا دليلا عقليا ٠

---

(١) انه يعنى بهذه الفئة الوهابيين ، فهو يحمد منهم ترك البدع والاهتداء بالسنن وتقديم الأثر ، على آراء البشر ، ولكنه ينكر عليهم ضيق العطن دون العناية بما أرشدت اليه النصوص من علوم الأكوان ، ومقدمات المدنية والعمران ٠

، اذا قيل لهم : اختلت الشئون ، وفسدت الملكات والظنون وساءت أعمال الناس ، وضلت عقائدهم ، وخوت عباداتهم من روح الاخلاص ، فوثب بعضهم على بعض بالشر ، وغالت اكثرهم اغوال الفقر ، فتضعضعت القوة ، واخترق السياج ، وضاعت البيضة وانقلبت العزة ذلة ، والهداية ضلة ، وساكنتكم الحاجة ، والفتكم الضرورة ، ولا تزالون تالمون مما نزل بكم وبالناس ، فهلا نبهكم ذلك الى البحث في أسباب ما كان سلفكم عليه ، ثم علل ما صرتم وصار الناس اليه ؟ قالوا : ذلك ليس الينا ، ولا فرضه الله علينا وانما هو للحكام ينظرون فيه ، ويبحثون عن وسائل تلافيه ، فان لم يفعلوا – ولن يفعلوا – فذلك لأنه آخر الزمان ، وقد ورد في الاخبار ما يدل على أنه كائن لا محالة ، وان الاسلام لابد أن يرفع من الأرض ، ولا تقوم القيامة الا على لكع بن لكع • واحتجوا على اليأس والقنوط بآيات وأحاديث وآثار تقطع الأمل ، ولا تدع في نفس حركة الى عمل ؟!

رأى رينان في الاسلام

هذا الجمود – الذى لو أردنا بيان ما امتد اليه من طيات الأفكار ، وثنيات الوجدان ، لكتبنا فيه كتابا – هو الذى حمل المسيو رينان الفيلسوف الفرنسي المشهور أن يقول في عرض كلام له في تساهل المذاهب الدينية مع العلم ، نقلته عنه الجامعة « على أننى اخشى أن يثبت الدين الاسلامى وحده في وجه هذا التسامح العام في العقائد ، ولكننى أعرف أن في نفوس بعض الرجال المتمسكين بآداب الدين الاسلامى القديمة وفي بضعة من رجال الآستانة وبلاد الفرس جراثيم جيدة ، تدل على فكر واسع ، وعقل ميال الى المسامحة ، الا أننى اخشى أن تختنق هذه الجراثيم بتعصب

بعض الفقهاء ، فاذا اختنقت قضى على الدين الاسلامى • ذلك أنه من الثابت الآن أمران ـ الأول : ان التمدن الحديث لا يريد اماتة الأديان بالمرة لأنها تصلح أن تكون وسيلة اليه • والثانى : أنه لا يطيق أن تكون الأديان عثرة فى سبيله • فعلى هذه الأديان أن تسالم وتلين . والا كان موتها ضربة لازب » هذا كلام رينان بتصرف لفظى قليل •

فمن أين يكون هذا الجمود العام ، الذى سمح للطاعنين أن يحكموا على الاسلام ، بأنه عثرة فى طريق المسلمين يسقط بهم دون أن ينالوا فلاحا فى سعيهم ، أو نجاحا فى أعمالهم ؟ من أين يكون هذا الجمود ان لم يكن من طبيعة الدين ؟ ومن أين يكون ما سردناه من الحوادث ان لم يكن ناشئا من أصول الدين ؟ فان لم تسلم بأن هذا اضطهاد ، وان الاضطهاد من لوازم الدين الاسلامى ، فعليك أن تسلم بأنه عداوة للعلم أو اشمئزاز منه • أو استهجان له ، أو احتقار لشأنه • وأحد هذه الأمور كاف اذا عم بين المسلمين فى أن ينفر بهم عن كل مجد ، وأن يحرمهم كل نفع • وأن يحقق فيهم ما تنبأ به رينان وغيره فما قولك فى هذا ؟؟

الجــواب

أقول هذا كلام فيه شبة من الحق ، ولمعة من الصدق ، أما ما نسمعه حولنا من سجن من قال يقول السلف فليس المعامل عليه المتمسك بالدين ، فان حملة العائم انما حركهم الحسد لا الغيرة • وأما صدور الأمر بالسجن فهو من مقتضيات السياسة ، والخوف من خروج فكر واحد من حبس التقليد ، فتنتشر عدارة فينتبه غافل آخر ، ويتبعه ثالث ، ثم ربما تسرى العدوى من الدين الى غير الدين ـ الى آخر ما يكون من حرية الفكر (يعوذون بالله منها) •

فان شئت أن تقول أن السياسة تضطهد الفكر أو الدين أو العلم فأنا معك من الشاهدين · أعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن معنى السياسة ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ومن كل خيال يخطر ببالى من السياسة ، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل فى السياسة ، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس ·

يذلك على أن العقوبة سياسية أن الرجل كان يقول بقول السلف من أهل الدين · لا تقل أن هذه السياسة من الدين ، فانى أشهد الله ورسوله وملائكته وسلفنا أجمعين ، أن هذه السياسة من أبعد الأمور عن الدين ، كأنها الشجرة التى تخرج فى أصل الجحيم (طلعها كأنه رءوس الشياطين * فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون * ثم أن لهم عليها لشوبا من حميم * ثم أن مرجعهم لالى الجحيم * فهم على آثارهم يهرعون) ·

جمود المسلمين واسبابه

وأما ما وصفت بعد ذلك من الجمود فهو مما لا يصح أن ينسب الى الاسلام ، وقد رأيت صورة الاسلام فى صفائها ونصوع بياضها ليس فيها ما يصح أن يكون أصلا يرجع اليه شىء مما ذكرت ولا مما تنبأ بسوء عاقبته (رينان) وغيره · وانما هى علة عرضت على المسلمين عندما دخل على قلوبهم عقائد أخرى ساكنت عقيدة الاسلام فى أفئدتهم) وكان السبب فى تمكنها من نفوسهم واطفائها لنور الاسلام من عقولهم ، هو السياسة كذلك ، هو تلك الشجرة الملعونة فى القرآن عبادة الهوى واتباع خطوات الشياطين ـ هو السـياسة ·

لم أر كالاسلام دينا حفظ أصله ، وخلط فيه أهله ، ولا مثله سلطانا تفرق عنه جنده ، وخفر عهده ، وكفر وعيده ووعده ، وخفى على الغافلين قصده ، وان وضح للناظرين رشده ، أكل الزمان أهله الأولين ، وأدال منهم خشارة(١) من الآخرين ، لا هم فهموه فاقاموه ، ولا هم رحموه فتركوه ، سواسية من الناس اتصلوا به ، ووصلوا نسبهم بسببه وقالوا نحن أهله وعشيرته ، وحماته وعصبته ، وهم ليسوا منه شيء الا كما يكون الجهل من العلم • والطيش من الحلم ، وأفن الرأى من صحة الحكم •

أنظر كيف صارت مزية من مزايا الاسلام سببا فيما صار اليه أهله : كان الاسلام دينا عربيا ، ثم لحقه العلم فصار علما عربيا ، بعد أن كان يونانيا ، ثم أخطأ خليفة فى السياسة فاتخذ من سعة الاسلام سبيلا الى ما كان يظنه خيرا له • ظن أن الجيش العربى قد يكون عونا لخليفة علوى ، لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبى صلى الله عليه وسلم فأراد أن يتخذ له جيشا أجنبيا من الترك والديلم وغيرهما من الأمم التى ظن أنه يستعبدها بسلطانه ، ويصطنعها باحسانه ، فلا تساعد الخارج عليه ، ولا تعين طالب مكانه من الملك ، وفى سعة أحكام الاسلام وسهولته ما يبيح له ذلك ، هنالك استعجم الاسلام وانقلب عجميا •

خليفة عباسى أراد أن يصنع لنفسه ولخلفه ، وبئس ما صنع بأمته ودينه أكثر من ذلك الجند الأجنبى وأقام عليه الرؤساء منه . فلم تكن الا غشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء ، واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة فى قبضتهم ،

---

(١) الخشارة بالمعجمتين كالحثالة وزنا ومعنى : الردىء وما لا خير فيه من كل شيء • من خشارة الشعير وهى ما لا لب له وخشارة الثمر هى رديئة والشيص منه ، وحثالة الطعام ما سقط منه اذا نقى •

ولم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الاسلام والقلب الذى هذبه الدين ، بل جاءوا الى الاسلام بخشونة الجهل ، يحملون الوية الظلم ، لبسوا الاسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شىء الى وجدانهم ، وكثيرا منهم كان يحمل الهه معه يعبده فى خلوته ، ويصلى مع الجماعات لتمكين سلطته ، ثم عدا على الاسلام آخرون كالتتار وغيرهم ، ومنهم من تولى سلطته ، ثم عدا على الاسلام آخرون كالتتار وغيرهم ، ومنهم من تولى أمره ٠

أى عدو لهؤلاء أشد من العلم الذى يعرف الناس منزلتهم ، ويكشف لهم قبح سيرهم ؟ فمالوا على العلم وصديقه الاسلام ميلتهم ، أما العلم فلم يحفلوا بأهله ، وقبضوا عنه يد المعونة ، وحملوا كثيرا من اعوانهم أن يندرجوا فى سلك العلماء وأن يتسربلوا بسرابيله ، ليعدوا من قبيله ، ثم يضعوا للعامة فى الدين ما يبغض اليهم العلم ويبعد بنفوسهم عن طلبه ، ودخلوا عليهم وهم اغرار من باب التقوى وحماية الدين ، زعموا الدين ناقصا ليكملوه ، أو مريضا ليعللوه ، أو متداعيا ليدعموه ، أو يكاد ينقض ليقيموه ٠

نظروا الى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية ، وفى عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية ، فاستعادوا من ذلك للاسلام ما هو براء منه ، لكنهم نجحوا فى اقناع العامة بأن فى ذلك تعظيم شعائره ، وتفخيم أوامره ، والغوغاء عون الغاشم ، وهم يد الظالم ، فخلقوا لنا هذه الاحتفالات ، وتلك الاجتماعات ، وسنوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة ، وأركس الناس فى الضلالة وقرروا أن المتاخر ، ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم ، وجعلوا ذلك عقيدة ، حتى يقف الفكر ، وتجمد العقول ، ثم بثوا اعوانهم فى أطراف المماليك الاسلامية ينشرون من القصص والأخبار والآراء ما يقنع العامة ، بأنه لا نظر

لهم فى الشئون العامة ، وأن كل ما هـو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ، ومن دخل فى شيء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه ، وأن ما يظهر من فساد الأعمال ، واختلال الأحوال ، ليس من صنع الحـكام ، وانما هو تحقيق لما ورد فى الأخبار من أحوال آخر الزمان ، وأنه لا حيلة فى اصلاح حال ولا مآل ، وان الاسلم تفويض ذلك الى الله ، وما على المسلم الا أن يقتصر على خاصة نفسه · ووجـدوا فى ظواهـر الألفـاظ لبعض الأحـاديث ما يعينهـم على ذلك ، وفى الموضوعات والضعاف ما شد أزرهم فى بث هذه الأوهام ·

وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضلين ، وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم فى جميع الأطراف ، واتخذوا من عقيدة القدر مثبطا للعزائم ، وغلا للايدى عن العمل · والعامل الأقوى فى النفوس على قبول هذه الخرافات انما هو السذاجة ، وضـعف البصيرة فى الدين ، وموافقة الهوى ـ أمور اذا اجتمعت أهلـكت ، فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ، ورسخ فى نفوس النـاس من العقائد ما يضارب أصول دينهم ويباينها على خط مسـتقيم كما يقـال ·

هذه السياسة ـ سياسة الظلمة وأهل الأثرة ـ هى التى روجت ما ادخل على الدين مما لا يعرفه ، وسلبت من المسلم أملا كان يخترق به أباق السموات ، واخلدت به الى يأس يجاور به العجماوات، فجعل ماتراه الآن مما تسميه اسلاما فهو ليس باسلام، وانما حفظ من أعمال الاسلام صورة الصلاة والصوم والحج ، ومن الأقوال قليلا منها حرفت عن معانيها ، ووصل الناس بما عـرض على دينهم من البدع والخرافات الى الجمود الذى ذكرته وعدوه دينا ، نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله ودينه ، فكل ما يعـاب

الآن على المسلمين ليس من الاسلام ، وانما هو شيء آخر سموه اسلاما . والقرآن شاهد صادق (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) يشهد بانهم كاذبون ، وأنهم عنه لاهون ، وعما جاء به معرضون . وسنبين لك الكلام فى مفاسد هذا الجمود ، ونثبت انه علة لابد أن تزول .

مفاسد هذا الجمود ونتائجه

طال امد هذا الجمود لاستمرار عمل العاملين فى المحافظة عليه ، وولع شهواتهم بالدفاع عنه ، وقد حدثت عنه مفاسد يطول بيانها ، وانما يحسن اجمال القول فيها .

كان الدين هو الذى ينطلق بالعقل فى سعة العلم ، ويسيح به فى الأرض ، ويصعد به الى أطباق السماء ، ليقف به على أثر من آثار الله ، أو يكشف به سرا من أسراره فى خليقته ، أو يستنبط حكما من احكام شريعته ، فكانت جميع الفنون مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ما تشاء ، وتبلغ من التمتع بها ما تريد . فلما وقف الدين ، وقعد طلاب اليقين ، وقف العلم وسكنت ريحه ، ولم يكن ذلك دفعة واحدة ولكنه سار سير التدريج .

جناية الجمود على اللغة

اول جناية لهذا الجمود كانت على اللغة العربية وأساليبها وآدابها فان القوم كانوا يعنون بها لحاجة دينهم اليها — أريد حاجتهم فى فهم كتابهم الى معرفة دقائق أساليبها ، وما تشير اليه هيئة تراكيبها ، وكانوا يجدون انهم لن يبلغوا ذلك حتى يكونوا عربا بملكاتهم ، يساوون من كانوا عربا بسلائقهم . فلما

لم يبق للمتأخر الا الأخذ بما قال المتقدم ، قصر المحصلون تحصيلهم على فهم كلام من قبلهم ، واكتفوا بأخذ حكم الله منه بدون أن يرجعوا الى دليله ، ولو نظروا فى الدليل فرأوه غير دال له بل دالا مخصصه ، بأن كان عرض له فى فهمه ما يعرض للبشر الذين لم يقرر الدين عصمتهم ، لخطئوا نظرهم وأعمد ابصارهم وقالوا : نعوذ بالله أن تذهب عقولنا الى غير ما ذهب اليه متقدمنا ، وأرغموا عقلهم على الوقفة فيصيبه الشلل من تلك الناحية • فأية حاجة له بعد ذلك الى اللغة العربية نفسها ، وقد يكفيه منها ما يفهم به أسلوب كلام المتقدم ، وهو ليس من أولئك العرب الذين كان ينظر الأولون فى كلامهم •

وهكذا كل متأخر يقصر فهمه على النظر فى كلام من يليه هو غير مبال بسلفه الأول ، بل ولا بما كان يحف بالقول من أحوال الزمان ، فهو لا ينظر الا اللفظ وما يعطيه ، فتسقة منزلته فى تحصيل اللغة بمقدار بعده عن أهلها حتى وصل حال الناس الى ما نراهم عليه اليوم : جعلوا دروس اللغة لفهم عبارة بعض المؤلفين فى النحو وفنون البلاغة ، وان لم يصلوا منها الى غاية فى فهم ما وراءها فدرست علوم الأولين وبادت صناعتهم ، بل فقدت كتب السلف الأولين رضى الله عنهم ، وأصبح الباحث عن كتاب المدونة لمالك رحمه الله تعالى أو كتاب الأم للشافعى رحمه الله تعالى أو بعض كتب الأمهات فى فقه الحنفية كطالب المصحف فى بيت الزنديق • تجد جزءا من الكتاب فى قطر وجزءه الآخر فى قطر آخر ، فاذا اجتمعت لك أجزاء الكتاب وجدت ما عرض عليها من مسخ النساخ حائلا بينك وبين الاستفادة منها •

هذا كله من أثر الجمود وسوء الظن بالله وتوهم أن أبواب فضل الله قد أغلقت فى وجوه المتأخرين ، ليرفع بذلك المتقدمين ،

وعدم الاعتبار بما ورد فى الأخبار من أن المبلغ ربما كان أوعى من السامع وأن هذه الأمة كالمطر لا يدرى أوله خير أو آخره وقلة الالتفات الى أن ذلك قد أضاع آثار المتقدمين أنفسهم ، ولا حول ولا قوة الا بالله · لا ريب أن القارىء يحيط بمقدار ضرر هذه الجناية على اللغة ، يكفيه من ذلك أنه اذا تكلم بلغته لغة دينه وكتابه وقومه لا يجد من يفهم ما يقول ، وأى ضر أعظم من عجز القائل عن أن يصل بمعناه الى العقول ؟

جناية الجمود على النظام والاجتماع

وأعظم من هذه الجناية جناية التفريق وتمزيق نظام الأمة وايقاعها فيما وقع فيه من سبقها من الاختلاف وتفريق المذاهب والشيع فى الدين · كان اختلاف السلف فى الفتيا يرجع الى اختلاف افهام الأفراد ، وكل يرجع الى أصل واحد لا يختلفون فيه ، وهو كتاب الله وما صح من السنة ، فلا مذهب ولا شيعة ، ولا عصبية تقاوم عصبية ، ولو عرف بعضهم صحة ما يقول الآخر لاسرع الى موافقته كما صرح به جميعهم ، ثم جاء أنصار الجمود فقالوا يولد مولود فى بيت رجل من مذهب امام فلا يجوز له أن ينقل من مذهب أبيه الى مذهب امام آخر · واذا سألتهم قالوا : « وكلهم من رسول الله ملتمس » لكنه قول باللسان ، لا أصل له فى الجنان ، ثم كان حروب جدال بين ائمة كل مذهب لو صرفت آلاتها وقواها فى تبيين أصول الدين ونشر آدابه وعقائده الصحيحة بين العامة ، لكنا اليوم فى شأن غير ما نحن فيه ، يجد المطلع على كتب المتخلفين من مطاعن بعضهم فى بعض ما لا يسمح به أصل من أصول الدين الذى ينتسبون اليه · يضلل بعضهم بعضا ، ويرمى بعضهم بعضا بالبعد عن الدين ، وما المطعون فيه بأبعد عن الدين من الطاعن · ولكنه الجمود ، قد يؤدى الى الجحود ·

كان الاختلاف في العقائد على نحو الاختلاف فى الفتيا تخالف أشخاص في النظر والرأى ، وكان كل فريق يأخذ عن الآخر ولا يبالى بمخالفته له فى رأيه ، مسجدهم واحد وامامهم واحد وخطيبهم واحد فلما جاء دور الجمود ـ دور السياسة ـ أخذ المتخلفون فى التنطع وأخذت الصلات تتقطع وامتازت فرق وتألفت شيع كل ذلك على خلاف ما يدعو اليه الدين ، وقد بذل قوم وسعهم فى تمييز الفرق تمييزا حقيقيا فما استطاعوا وانما هو تمييز وهمى ، وخلف فى أكثر المسائل لفظى ٠ وانما هى الشهوات وضروب السياسات ٠ أشعلت نيران الحرب بين المنتسبين الى تلك الشيع حتى آل الأمر الى هذه الفرقة التى يظن الناظر فيها أنها لا دواء لها ٠

قال قائل(١) من عدة سنين : أنه ينبغى أن يعين القضاة فى مصر من أهل المذاهب الأربعة لأن أصول هذه المذاهب متقاربة وعبارات كتبها مما يسهل على الناظر فيها أن يفهمها وقال ان الضرورة قاضية بأن يؤخذ فى الأحكام ببعض أقوال من مذهب مالك أو مذهب الشافعى تيسيرا على الناس ودفعا للضرر والفساد: فقام كثير من المتورعين ، يحوقلون ويندبون حظ الدين ، كأن الطالب يطلب شيئا ليس من الدين ، مع أنه لم يطلب الا الدين ، ولم يأت الا بما يوافق الدين ، وبما كان عليه العمل فى أقطار العالم الى ما قبل عدة سنين ، فأين قول هؤلاء « وكلهم من رسول الله ملتمس » ؟ لكن هو جمود المتأخر على رأى من سبقه مباشرة وقصر نظره عليه دون التطلع الى ما وراءه ٠ أو هى السياسة تحل ما تشاء وتحرم ما تشاء ، وتصحح ما تشاء ، وتعطل ما يشاء ، والناس منقادون اليها بأزمة القوة أو الاهواء ٠

---

(١) القائل هو الامام الكاتب وله فيه اقتراح رسمى فى تقريره الذى وضعه لاصلاح المحاكم الشرعية ٠

جناية الجمود على الشريعة وأهلها

هذا الجمود فى أحكام الشريعة جر الى عسر حمل الناس على اهمالها : كانت الشريعة الاسلامية أيام كان الاسلام اسلاما سمحة تسع العالم بأسره ، وهى اليوم تضيق عن أهلها ، حتى يضطروا الى أن يتناولوا غيرها وأن يلتمسوا حماية حقوقهم فيما لا يرتقى اليها ، وأصبح الاتقياء من حملتها يتخاصمون الى سواها ٠

صعب تناول الشريعة على الناس حتى رضوا بجهلها عجزا عن الوصول الى عملها ، فلا ترى العارف بها من الناس الا قليلا لا يعد شيئا اذا نسب الى من لا يعرفها ٠ وهل يتصور من جاهل بشريعة أن يعمل بأحكامها ؟ فوقع أغلب العامة فى مخالفة شريعتهم بل سقط احترامها من أنفسهم لأنهم لا يستطيعون أن يطبقوا أعمالهم بمقتضى نصوصها ٠ وأول مانع لهم ضيق الطاقة عن فهمها لصعوبة العبارات وكثرة الاختلاف ٠

سألت يوما أحد المدرسين فى بعض المذاهب : هل تبيع وتشترى وتصرف النقود على مقتضى ما تجد فى كتب مذهبك فأجاب أن تلك الأحكام قلما تخطر بباله عند المعاملة بالفعل وانما يفعل ما يفعل الناس ٠ هكذا فعل الجمود بأهله ، ولو أرادوا أن تكون للشريعة حياة يحيا بها الناس لفعلوا ، ولسهل عليهم وعلى الناس أن يكونوا بها أحياء ٠

تعلم ما وصل اليه الناس من فساد الأخلاق والانحراف عن حدود الشريعة لو سألت عن سببه فى القرى وصغار المدن لوجدته أحد أمرين : اما فقد العارف بالشريعة والدين وسقوط القرية او المدينة فى جاهلية جهلاء يرجع بعض أهلها الى بعض فى معرفة

الحلال والحرام وليس المسئول بأعلم من السائل وكلهم جاهلون ، وانما عجز العارف عن تفهيم من يسأله ، لاعتقال لسانه عن حسن التعبير بطريقة تفهمها العامة ، فهو اذا سئل يقرأ كتابا أو يسرد عبارة يصعب على السامع فهمها وعلى المتكلم افهامها · وذلك للحرج الذى وضع فيه نفسه ، فلا يستطيع التصرف فيما يسمع ولا فيما يعلم · فاذا قلت للعارف : تعلم من وسائل التعبير ما يقدرك على مخاطبة الطبقات المختلفة من الناس حتى تنفع بعلمك ، واعل بنفسك الى أن تفهم الغرض من قول أمامك فتجد لا صلة انطباقا على هذه الحادثة مثلا وان لم يأت ذكرها بنفسها فى قوله او قول من جاء بعده من اتباعه ، ـ قال : سبحان الله : هل فعل ذلك أحد من المشايخ ؟ يريد ألا يأتى شيئا الا ما أتى به شيخه الذى أخذ عنه يدا بيد ، ولو ابعد بنظره لوجد قدماء المشايخ قد فعلوه وبالغوا فيه حتى خالفوا من أخذوا عنه فى بعض رأيه ثم اذا حاججته فى ذلك لم يبعد من رأيه أن يعدك زنديقا ، وانك تدعوه الى الخروج من دينه ، ولا يدرى المسكين انه بذلك يخالف نصوص دينه ، وأنه يتهيأ للخروج منه ، نعوذ بالله تعالى ·

كان كلام بينى وبين أحد المدرسين فى أخذ الطلبة بالنصيحة وتذكيرهم بفضائل الاخلاق وصالح الأعمال ، خصوصا عند القاء الدروس الفقهية ودروس الحديث والتوحيد ، فقال لى : انه لا فائدة فى ذلك قطعا ، وهو تعب فى غير طائل · فقلت له : ذلك حق عليك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وليس عليك أن يأتمر المأمور ولا أن ينتهى المنهى · فقال : اذا تحققت استحالة المنفعة كان الأمر والنهى لغوا ·

فانظر كيف أعتقد استحالة الانتفاع بنصحه لبلوغ الفساد من النفوس غايته كما يزعم ؟ ولم ينظر فى الوسيلة الى اقتلاع هذا الفساد ، مع أن الدين يدعوه الى ذلك وهو يعمل كل يوم عمله لتعليم

من لا سبيل الى اصلاحه ، هذا كله لأنه لم ير نفسه أهل لأن يتخذ وسيلة لم يتخذها من أخذ عنه ، أو لم يرشده اليها من تعلم هو بين يديه ولم يتذكر عند ذلك شيئا من الأوامر الالهية ، وان اليأس من روح الله انما يكون من القوم الكافرين أو الضالين ·

لا بل اذا قلت له : ان هذا الضرب من ضروب التعليم عقيم لا ينتج المطلوب منه ، أو أن هذا الكتاب الذى تعود الطلاب قراءاته قد يضر بقارئيه وغيره أفضل منه ·· كان يظن أن قولك هذا مخالف للدين ، ورأى العدول عما تعوده نوعا من الاخلال بالدين ، وقد يقيم عليك حربا يعتقد نفسه فيها مجاهدا فى سبيل الله ·

اذا قلت له : أن دروس السلف كانت تقريرا للمسائل واملاء للحقائق على الطلاب ، ولم يكن لاحد منهم كتاب يأخذه بيده ويقرئه تلاميذه ، ولم يكن بأيدى الطلبة الا الأقلام والقراطيس يكتبون ما يسمعونه من أفواه اساتذتهم · قد يعترف لك بصحة ما تقول ولكنه يستمر فى عمله ، اعتمادا على أنه وجد الناس هكذا يعملون ، فهل يخطر ببال عاقل أن هذا الجمود من الدين ؟ وهل يرتاب من له أدنى ادراك فى سوء عقباه على الدين وأهل الدين ؟

جناية الجمود على العقيدة

ذلك جمودهم فى العمل ، واشد ضررا منه الجمود فى العقيدة: نسوا ما جاء فى الكتاب وايدته السنة من أن الايمان يعتمد اليقين ، ولا يجوز الأخذ فيه بالظن ، وان العقل هو ينبوع اليقين فى الايمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة ، وان النقل ينبوع له فيما

بعد ذلك(١) من علم الغيب كأحوال الآخرة وفرض العبادات وهيآتها ، وان العقل ان لم يستقل وحده فى ادراك مالا بد فيه من النقل فهو مستقل لا محالة فى الاعتقاد بوجود الله وبأنه يجوز أن يرسل الرسل فتأتينا عنه بالمنقول ـ نسوا ذلك كله وقالوا : لابد من مذهب خاص فى العقيدة ، وافترقوا فرقا وتمزقوا شيعا كما قلنا . ولم يكفهم الالزام باتباع مذهب خاص فى نفس المعتقد ، بل ذهب بعضهم الى انه لابد من الأخذ بدلائل خاصة للوصول الى ذلك المعتقد فيكون التقليد فى الدليل كالتقليد فى المدلول ، وكأنهم لذلك جعلوا النقل عمادا لكل اعتقاد وباليته النقل عن المعصوم ، بل النقل ولو عن غير المعروف ، فتقررت لديهم قاعدة : ان عقيدة كذا صحيحة ، لأن كتاب كذا للمصنف فلان يقول ذلك ، ولما كانت الكتب قد تختلف اقوالها صار من الصعب أن يجد الواحد منهم لنفسه عقيدة قارة صافية غير كدرة ولا متزعزعة • وقد سرى ذلك من قراء المقلدين الى أمييهم فتراهم يعتقدون كل ما يقال وينقل عن معروف الاسم ، وأن لم يكن فى حق الأمر من أهل العلم ، وتتناقض عقائدهم على حسب تناقض مسموعاتهم •

انجر التساهل فى الاعتماد على النقل الى الخروج عما اختطه لنا السلف رضى الله عنهم ، فقد كانوا ينقبون عن صفات من ينقلون عنه ، ويمتحنون قوله ، حتى يكونوا على شبه اليقين من انه موضع الثقة • ولكن جمود المتأخر على ما يصل اليه من المتقدم

---

(١) يعنى ان الأخذ بما جاء به الرسل متوقف بالفعل ـ وفقا لنظر العقل على التصديق بأن الله أرسلهم ، فهو لا يكون الا بعده • وهذا قطعى بالنسبة الى من يدعى الى الدين من الكفار والى اقامة الحجة على المنكر ، وأما الناشىء فى الاسلام فلا ترتيب عنده فى ذلك فهو يأخذ العلم بالله وصفاته وأدلتها العقلية من القرآن مباشرة •

صير النقل فوضى ، فتجد كل شخص يأخذ عمن عرفه وظن أنه أهل للاخذ عنه بدون بحث ولا تنقيب ، حتى شاع بين الناس من الأقوال وموضوعات الأحاديث ، ما ترتفع الأصوات بالشكاية منه من حين الى حين • وكل ما تراه من البدع المتجددة فمنشؤه سوء الاعتقاد الذى نشأ من رداءة التقليد ، والجمود عند حد ما قال الأول بدون بحث فى دليله ولا تحقيق فى معرفة حاله ، واهمال العقل فى العقائد على خلاف ما يدعو اليه الكتاب المبين والسنة الطاهرة • دخلت على الناس لذلك عقائد يحتاج صاحب الغيرة على الدين فى اقتلاعها من أنفسهم الى عناء طويل ، وجهاد شديد ، وسلاحه الكتاب وسلاح أعدائه أقوال بعض من تقدم من يعرف ومن لا يعرف ـ وما أكثر عدد من ينصر اعداءه اليوم وما اقلهم غدا ان شاء الله •

سأل سائل الأستاذ شيخ الجامع الأزهر عن حكم عمل من الأعمال الجارية فى المساجد يوم الجمعة ـ ومنزلة الشيخ من الرياسة فى أهل العلم بالدين منزلته ـ فأفتى بما ينطبق على السنة وما يعرفه العارفون بالدين وقال : ان العمل بدعة من البدع يجب التنزه عنها • أتظن أن المستفتى أمكنه العمل بمقتضى الفتيا ؟ كلا • حدث قيل وقال، وكثرة تسآل ، ودخلت السياسة ثم قيل: ان الزمان ناصر الحقيقة ، وقد وجدنا الأمر كذلك من قبلنا • وسكت السائل وماذا يصنع المجيب ؟

نعم هذا من شؤم ذلك الجمود فقد فصل بين العامة ومن يرجى فيهم تقويم ما اعوج منها ووكلت الى اناس منها لا علم لهم بالدين ولا بالأدب وقد غرسوا فى أذهان الدهماء شر الغرس ، ولا تجنى الأمم منه الا اخبث الثمر • فلو قام العالم بالدين وأراد أن يبين حكم الله المصرح به فى كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم

المجمع عليه عند السلف قاطبة انتصب له ناعر من العامة يصيح في وجهة (ما سمعنا بهـذا فى آبائنا الأولين) ويريد من اباته الأولين من رآهم بعد ولادته أو ذكرت له اسماؤهم بلسان مضليه حتى صار ارشاد العامة اليوم من أصعب الأمور وأشـــقها على طالبــــه •

ماذا يمكن أن أقول ؟ أصبح الرجل يرتكب فى وسائل العبادة أقبح المنكرات فى الدين واذا دعى الى ترك المنكر نفر وزمجـــر وأبى واستكبر • انظر ماذا يصنع الموسوســون ومن يقــرب منهم في الاستبراء من البول على مرأى من المارة وفيهم النســاء والأطفال وهم يظنون أنهم يتقربون الى الله بما يفعلون •

هذا هو شأن العامة يرون ما ليس بدين دينا ، ويصعب على حفاظ الدين ارشادهم بفضل جمودهم على ما ورثوا من ملقنيهم بدون تعقل •

فهذا معظم الأمة تراه قد تملص من أيدى منذريه • ولو شاءوا لاتصل كل منهم على صاحبه ، وهو أيسر شيء على حملة الشريعة ، وما هو الا أن يرجعوا الى ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من سعة الدين وسماحته ، ثم العمل على حفظه وحياته•

الجمود ومتعلموا المدارس النظامية

ثم أن الجمود قد أحدث لنا فريقا آخر وهو فريق المتعلمين على الطرق الجديدة أما فى مدارس الحكومة الاسلامية واما فى المدارس الأجنبية داخل بلادهم أو خارجا عنها • لا أتكلم عن هذا الفريق فى بلاد القرم أو القوقاز أو سمرقند أو بخارى أو الهند ، فانى لا أعرف كثيرا من أحوالهم ومن رأيته منهم رأيت فيه خيرا

وأرجوا أن يكون منهم لقومهم ما ينتظره الاسلام من العارفين به ، فقد رأيت افرادا قليلين من هؤلاء تعلموا فى البلاد الأوربية ودرسوا العلوم فيها درسا دقيقا ، وهم أشد تمسكا بلب الدين الاسلامى وروحه من كثير ممن يدعون الورع والتقوى ولا يسمحون لأنفسهم بترك عادة صحيحة من العادات التى أورثها دينهم قومهم ، فنعم المتعلمون هؤلاء ، أكثر الله منهم·

وانما اتكلم عن هذا الفريق من المتعلمين فى مصر وسورية وسائر بلاد الدولة العثمانية · سماحة الاسلام وسعة حمله للعلم اباحتا للمسلمين أن يرسلوا اولادهم ليأخذوا العلم فى المدارس الرسمية وغير الرسمية عن أساتذة فيهم المسلم وغير المسلم ، أو أساتذة كلهم غير مسلمين ، بل فى مدارس لم تبن الا لترويج دين غير الدين الاسلامى وأباحتا لغير آباء هؤلاء التلاميذ أن يسكتوا والا ينكروا عليهم عملهم ، ما دامت العقيدة سالمة من الهدم أو الضعضعة ·

جمود تلاميذ المدارس الأجنبية

هؤلاء التلاميذ أن كانوا فى مدارس اجنبية لا أثر لتعليم الدين الاسلامى فيها ، بل ربما يعلم فيها دين آخر فقد يسرى الى عقائدهم شىء من الضعف ، وقد تذهب عقائدهم بالمرة وتحتل مكانهم عقائد أخرى تناقضها ، كما شوهد ذلك مرارا · ولو كان آباؤهم على علم بطرق الاستدلال الاقناعية لعقائد دينهم لدعموا من عقائد أبنائهم وحفظوها من التزلزل أو الزوال ، وكيف يكون لاولئك الآباء شىء من هذا العلم مع الجمود على طرق قديمة لا يصل الى فهمها من ينقطع لتعليمها ، فضلا عن أولئك المساكين ، بل لو كان هناك مرشدون على طريقة يسهل فهمها لتيسر لهؤلاء التلاميذ أن يهتدوا بهديهم ولكن الجمود صير كل شىء صعبا وكل أمر غير مستطاع ·

فهذه جناية من جنايات الجمود على أبناء المسلمين الذين يتعلمون فى مدارس أجنبية ، يخرجهم من دينهم من حيث لا يشعرون • ويا ليتهم يستبدلون بالدين رادعا آخر من الأدب والحكمة كما يرجوا بعض المغرورين الذين لا يعلمون طبائع هذه الأمم ، أو كما يروجه بعض من لا يريدون الخير بها ، ولكنه ترك افئدتهم خواء خالية من كل زاجر أو دافع ، اللهم الا زاجرا عن خير أو دافعا الى شر ، فاتخذوا الهمم هواهم وأمامهم شهوتهم • فهلكوا وأهلكوا ، ومن هؤلاء ورثة الأغنياء الذين تصيح من شرور اعمالهم الجرائد كل يوم ، فالجهل خير مما يتعلم هؤلاء بدون ريبة ، وليت الاسلام لم يرحب صدره لمثل هذا الضرب من التعليم والتعلم •

جمود تلاميذ المدارس الرسمية والأهلية

اما المتعلمون فى مدارس رسمية أو غير رسمية للتعليم الدينى فيها شىء من البقية فهؤلاء ينشئون على شىء من المعارف فى الفنون المختلفه ، وتقرر لهم حقائق فى الكون السماوى أو الأرضى أو فى الاجتماع الانسانى ، ومن عرف شيئا انطلق لسانه بالخوض فيه ، وقد يسمعه متنطع ممن يلبس لباس أهل الدين وهو جامد على الفاظ سمعها ، فلو سمع شيئا غيرها انكره وظنه مخالفا للعقيدة الصحيحة فيأخذ يلوم المتعلم ويوبخه ، ويرميه بالمروق من الدين ، هذا والمتعلم لا يشك فى قوة دليله ، ولجهله بالدين يعتقد أن ما يقوله خصمه منه ، فينفر من دينه نفرته من الجهل ، ولو قال له قائل : ارجع الى كتب الدين تجد فيها ما يسرك وينصرك على نفسك وخصمك ، حار لا يدرى الى اى كتاب يرجع ، ولم يسهل عليه فهم تلك العبارات التى ورثها القوم على ما فيها من تشعيب وتعقيد وأبقوها كما ورثوها ، فيعود الى النفور من الدين نفور طالب الفهم مما لا يمكنه فهمه •

لهذا يعتقـد أكثر هؤلاء أن الدين شيء غير مفهوم ، بل قد يعده بعضهم خـرافة « نعوذ بالله » فيأخذون عنه جانبا ، ويتركون عقائده وفضائله وآدابه ، ويلتمسون لهم آدابا غيره ، وقلما يجدونها، فتراهم وقد فترت قلوبهم وقصرت هممهم ، فلا يطلبون الا ما تطلبه العامة من كسب معيشة أو علو جاه « مادام الشرف محفوظا » فاذا وجد بينهم من يدعى الوطنية أو الغيرة الملية أو نحو ذلك ، فانما ينثر الألفاظ نثرا لا يرجع فيها الى أصل ثابت ، ولا الى علم صحيح • ولهذا يطلب لبلاده من الوجه الذى يؤدى الى المفسدة ، وهو يشعر ــ أو لا يشعر ــ على حسب حاله • ومنهم من يصيح باسم الدين ولا تتحرك نفسه لمعرفة حكم من أحكامه أو درس عقيدة من عقائده ، فشأنهم كلام فى كلام ، ولبئس ما يصنعون ، ولولا هذا الجمود لوجدوا فى كتب دينهم وفى أقوال حملته ما تبتهج به قلوبهم ، وتطمئن اليه نفوسهم ، ولذاقوا طعم العلم مادوما بالدين • وتمكنوا من نفع أنفسهم وقومهم ولوجدت منهم طبقـة معـــروفة ، يرجع اليها فى سير الأمة وسياسة أفكارها وأعمالها الاجتماعية •

الجمود علة تزول

تفصيل مضرات هذا الجمود وسيئاته يحتاج الى كتاب طويل فنكتفى بما أوجزناه فى الصفات السابقة • ولن يبقى الكلام فى أنه عارض يمكن زواله أن شاء الله تعالى •

وقد عرفت من طبيعة الدين الاسلامى بعد عرضها عليك فيما سبق أنها تسمو عن أن ينسب اليها هذا المرض الخبيث ـ مرض الجمود على الموجود ـ وكم فى الكتاب من آية تنفر من اتباع الآباء مهما عظم أمرهم بدون استعمال العقل فيما كانوا عليه ، ولا حاجة الى اعادة ذلك •

ثم أننا أشرنا أيضا الى بعض الأسباب التى جلبت هذا الجمود على المسلمين لا على الاسلام ، وأن محدثها أما عدو للمسلمين طالب لخفض شأنهم أو لاستعبادهم واستغلال أيديهم لخاصة نفسه واما محب جاهل يظن خيرا ويعمل شرا • وهذا الثانى كان أشد نكاية وأعون على الغواية ، وهل تزول هذه العلة ويرجع الاسلام الى سعته الأولى وكرمه الفياض ؟ وينهض بأهله الى خير ما ذخر فيه ؟؟

جاء فى الكتاب المبين (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) ذلك الذكر هو الذكر الحكيم ـ هو القرآن الذى (أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) هو كما قال (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون) وعد الله بحفظ هذا الكتاب وقد أنجز وعده ،

لم تطل اليه يد عدو مقاتل ، ولا يد محب جاهل ، فبقى كما نزل ، ولا يضره عمل الفريقين فى تفسيره وتأويله ، فذلك مما لا يلتصق به ، فهو لا يزال بين دفات المصاحف طاهرا نقيا بريئا من الاختلاف والاضطراب ، وهو امام المتقين ، ومستودع الدين ، واليه المرجع اذا اشتد الأمر ، وعظم الخطب ، وسئمت النفوس من التخبط فى الضلالات ، ولا يزال لاشعة نوره نفوذ من تلك الحجب التى اقاموها دونه ولابد أن تتمزق كلها بأيدى أنصاره • فيتبلج ضياؤه لأعين أوليائه • ان شاء الله تعالى •

هذا الضياء كان ولا يزال يلوح لامعه فى حنادس الظلم لأفراد اختصهم الله بسلامة البصيرة فيهتدون به اليه ويحمدون سراهم ، بما عرفوا من نجاح مسعاهم ، ولكن الذين أطبقت عليهم ظلم البدع وران على قلوبهم ما كسبوا من التحزب للشيع ، وطمست بصائرهم وفسدت عقولهم بما حشوها من الأباطيل ، وبما عطلوها عن النظر فى الدليل ، هؤلاء فى عمى عن نوره ، وقلوبهم فى أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقر ، يصيحون بأنهم عمى صم ، فلا يرون له سناء ، ولا يسمعون له نداء ، ويعدون ذلك من كمال الايمان به ، ولبئس ما رضوا لأنفسهم من السفه وطيش الحلم وهم يعلمون•

هذا حال الجمهور الأعظم ممن يوصفون بأنهم مسلمون ، ويجلبون العار على الاسلام بدخولهم تحت عنوانه ، ويقوون حجج أعدائه فى حربه ، بزعمهم الاجتماع تحت لوائه ، وما هم منه فى شىء كما قدمنا •

هؤلاء لابد أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم ، فقد اتبعوا سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، وضيقوا على أنفسهم بدخولهم فى جحر الضب الذى دخلوه (١) ومن اتبع سنن قوم استحق

---

(١) فى الكلام اشارة الى حديث « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا ضب لدخلتموه » رواه الشيخان وغيرهما •

الوقوع تحت أحكام سنن الله فيهم ، فلن يخلص مما قضى الله فى عذابهم • فقد قص عليهم سير الأولين ، وبين لهم ما أنزل بهم عندما انحرفوا عن سننه ، وحادوا عن شرعه ، ونبـذوا كتابه وراءهم ظهريا ـ أحل بهم الذل ، وضرب عليهم المسكنة ، وأورث غيرهم أرضهم وديارهم ، فهل ينتظر المتبعون سننهم ، والســائرون على أثرهم ، أن يصنع الله بهم غير الذى صنع بسابقيهم ؟ وقد قضى بأن تلك سنته ولن تجد لسنته تبديلا ؟

لاتزال الشدائد تنزل بهؤلاء المنتسبين الى الاســلام ولاتزال القوارع تحل بديارهم حتى يفيقوا (وقد بدءوا يفيقون من سكرتهم) ويفزعوا الى طلب النجاة ، ويغسلوا قذى المحدثات عن بصائرهم ، وعند ذلك يجدون هذا الكتاب الكريم فى انتظارهم ، يعد لهم وسائل الخلاص ، ويؤيدهم فى سبيله بروح القدس ، ويسير بهم الى منابع العلم ، فيغترفون منها ما يشاءون ، فيعرفون أنفسهم ويشهدون ما كمن فيها من قوة ، فيأخذ بعضهم بيد بعض ، ويسيرون الى المجد غير ناكلين ولا مخذولين •

ولهذا أقول : أن الاسلام لن يقف عثرة فى سبيل المدنية أبدا ، لكنه سيهذبها وينقيها من أوضارها ، وستكون المدنيـة من أقوى أنصاره متى عرفته وعرفها أهله • وهذا الجمود سيزول ، وأقوى دليل لك على زواله ، بقاء الكتاب شاهدا عليه بسوء حاله ، ولطف الله بتقييض أناس للكتـاب ينصرونه ، ويدعون اليه ويؤيدونه ، والحوادث تساعدهم ، وسوط عذاب الله النازل بالجامدين ينصرهم •

هذا الكتاب المجيد الذى يتبعه العـلم حيثما سار شرقا وغربا لابد أن يعود نوره الى الظهور ، ويمزق حجب هذه الضـلالات ، ويرجع الى موطنه الأول فى قلوب المسلمين ويأوى اليهـا ـ العـلم يتبعه وهو خليله الذى لا يأنس الا اليه ، ولا يعتمد الا عليه •

يقول أولئك الجامدون الخامدون ـ كما يقول بعض أعـداء القرآن ان الزمان قد أقبل على آخره ، وأن الساعة أوشكت أن تقوم ، وان ما وقع فيه الناس من الفساد ، وما منى به الدين من الكساد ، وما عرض عليه من العلل ، وما نراه فيه من الخلل ، انما هو أعراض الشيخوخة والهرم ، فلا فائدة فى السعى ، ولا ثمرة للعمل ، فلا حركة الا الى العدم ولا يصح أن يمتد بصرنا الا الى العدم ، ولا أن ننتظر من غاية لأعمالنا سوى العدم (نعوذ بالله) ٠

هؤلاء حفدة الجهل ، وأعوان اليأس ، يهرفون بما لا يعرفون ماذا عرفوا من الزمان حتى يعرفوا أنه كاد ينقطع عند نهايته ؟ ان الذى مضى بيننا وبين مبدأ الاسلام (أى الهجرة) ألف وثلاثمئة وعشرون عاما ، وانما هى يوم وبعض يوم أو بعض يوم فقط من أيام الله تعالى ٠ وأن آيات الله فى الكون ـ وان كانت تدل على أن مامضى على الخليقة يقدر بالدهور الدهارير ـ تشهد بان ما بقى لهذا النظام العظيم يقصر عن تقديره كل تقدير (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) ٠

ان ما بيننا وبين مبدأ الاسلام لا يزيد عن عمر ستة وعشرين رجلا كل رجل يعيش خمسين سنة فهل يعد مثـل ذلك دهرا طويلا بالنسبة الى دين عام كدين الاسلام ؟ ان زمنا كهذا لا يكفى ـ وقد تبين أنه لم يكف ـ لاهتداء الناس كافة بهديه ٠ ولم تقـوم القيامة على الدين ولم تقم على شرهم وطمعهم ؟

قد وعد الله بأن يتم نوره وبأن يظهره على الدين كله ، فسار فى سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعواما ، ثم انحرف به أهله عن سبيله ، وساروا به الى ما يرون ونرى ، ولن ينقضى العالم حتى يتم ذلك الوعد ، ويأخذ الدين بيد العلم ، ويتعاونا معا على تقديم العقل والوجدان ، فيدرك العقل مبلغ قـوته ، ويعـرف

حدود سلطته فيتصرف فيما آتاه الله تصرف الراشدين ، ويكشف ما مكنه فيه من أسرار العالمين ، حتى اذا غشيته سبحات الجلال وقف خاشعا ، وقفل راجعا ، وأخذ أخذ الراسخين فى العلم ، الذين قال فيهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) فيما روى عنه : « هم الذين أغناهم عن اقتحام السدود المضروبة دون الغيوب ، الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخا » واعتبر بعد ذلك بقوله : « فاقتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك ، فتكون من الهالكين ، هو القادر الذى اذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته ، وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسواس أن يقع عليه فى عميقات غيوب ملكوته ، وتولهت القلوب اليه لتجرى فى كيفية صفاته وغمضت مداخل العقول فى حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته ، ردعها وهى تجوب مهاوى سدف(١) الغيوب متخلصة اليه سبحانه فرجعت اذا جبهت(٢) معترفة بانه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته ، ولا تخطر ببال أولى الروايات خاطرة من تقدير جلال عزته »(٣)

هنالك يلتقى (أى العقل) مع الوجدان الصادق (القلب) ولم يكن الوجدان ليدابر العقل فى سيره داخل حدود مملكته ، متى كان الوجدان سليما ، وكان ما استضاء به من نبراس الدين صحيحا ، اياك أن تعتقد ما يعتقده بعض السذج من أن فرقا بين العقل والوجدان (القلب) فى الوجهة ، بمقتضى الفطرة والغريزة ،

---

(١) السدف جمع سدفة كظلمة لفظا ومعنى .

(٢) جبهة ضرب جبهته ورده .

(٣) هذا الكلام فيه من الصنعة وسمات التوليد ما يدل على أنه موضوع على (على كرم الله وجهه) .

فانما يقع التخالف بينهما عرضا عند عروض العلل والأمراض الروحية على النفوس وقد أجمع العقلاء على أن المشاهدات بالحس الباطن (الوجدان أو القلب) من مبادىء البرهان العقلى ، كوجدانك انك موجود ، ووجدانك لسرورك وحزنك وغضبك ولذتك وألمك ونحو ذلك •

منحنا العقل للنظر في الغايات ، والأسباب والمسببات ، والفرق بين البسائط والمركبات ـ والوجدان لادراك ما يحدث فى النفس والذات من لذائذ وآلام ، وهلع واطمئنان ، وشماس واذعان ونحو ذلك مما يذوقه الانسان ، ولا يحصيه البيان ، فهما عينان للنفس تنظر بهما ، عين على القريب : وأخرى تمد الى البعيد ، وهى فى حاجة الى كل منهما ولا تنتفع باحداهما حتى يتم لها الانتفاع بالأخرى ، فالعلم ، الصحيح مقوم الوجدان ، والوجدان السليم من أشد أعوان العلم • والدين الكامل علم وذوق ، وعقل وقلب ، برهان واذعان ، فكر ووجدان • فاذا اقتصر دين على أحد الأمرين فقد سقطت احدى قائمتيه ، هيهات أن يقوم على الأخرى ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الانسان الواحد انسانين ، والوجود الفرد وجودين •

قد يدرك عقلك الضرر فى عمل ولكنك تعمله طوعا لوجدانك ، وربما أيقنت المنفعة في أمر وأعرضت عنه اجابة لدافع من سريرتك ، فتقول ان هذا يدل على تخالف العقل والوجدان ، ولكنى أقول : ان هذه حجة من لا يعرف نفسه ولا غيره ، عليك أن ترجع الى نفسك فتتحقق من أحد الأمرين ـ أما أن يقينك ليس بيقين ، وأنه صورة عرضت عليك من قول غيرك ، فأنت تظنها علما وما هى به ، واما أن وجدانك وهم تمكن فيك ، وعادة رسخت فى مكان القوة منك ، وليس بالوجدان الصحيح ، وانما هو عادة ورثتها عمن حولك وظننتها شعورا منبعه الغريزة وما هى منه فى شىء •

لابد أن ينتهى أمر العالم الى تآخى العلم والدين ، على سنة القرآن والذكر الحكيم ، ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذى صح معناه « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله » ، وعند ذلك يكون الله قد أتم نوره ولو كره الكافرون وتبعهم الجامدون القانطون ، وليس بينك وبين ما أعدك به الا الزمان الذى لابد منه فى تنبيه الغافل وتعليم الجاهل ، وتوضيح المنهج ، وتقويم الأعوج ، وهو ما تقتضيه السنة الالهية فى التدريج (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا * انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا * ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وهو خير الناصرين .

الاســـلام

ومدنيــة اوربا


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمهيـــد

لم يبق علينا من الكلام الا ما يتعلق بالأمر الرابع مما ذكرته الجامعة (١) وهو « ان تمكن العـلم والفلسفة من التغـلب عـلى الاضطهاد المسيحى فى أوروبا وعـدم تمكنهما من التغـلب عـلى الاضطهاد الاسلامى دليل واقعى على أن النصرانيـة كانت اكثر تسامحا مع الفلسفة » .

ليس من السهل على أن أعتقد أن اديبا كصاحب الجامعـة يقول هذا القول ـ وهو ناظر الى الحقيقة بكلتا عينيه مع معرفته بلسان الغربيين واطلاعه على ما كتبوا فى هذه المسألة وهى من أهم المسائل التاريخية ـ وانما هى عين الرضا تناولت من حاضر الحال ومما انتهى اليه سير التاريخ ما تناولت ، ثم املت على قلبه ما جرى به قلمـه .

هل يصح أن تسمى الاستكانة للغالب تسامحا ؟ وهل يسمى العجز مع التطلع للنزاع عند القدرة حلما ؟ أم يسمى غل الأيـدى عن الشر بوسائل القهر كرما ؟ هل تعد مساكنة جناب البابا لملك ايطاليا فى مدينة واحدة واجتماع الكرسـيين العظيمين : كرسى المملكة الايطالية وكرسى المملكة البابوية ـ فى عاصـمة واحـــدة تسامحا من قداسة البابا مع الملك ؟ اليس الأجدر بالمنصـف ان

(١) كلام الجامعة فى نقد الاسلام كان مبنيا على أربعة أمور ، تقدم الرد على ثلاثة منها ، وفى هذا المقال الرد على الرابع .

يسمى ذلك تسامحا من الملك مع البابا ، لأنه صاحب القوة والجيش والسلطنة ، ويمكنه أن يسلب البابا تلك الثمالة التى بقيت له من من السلطة الملكية ؟ كما أن الأليق به أن يسمى تلك الحالة التى عليها أهل أوربا اليوم من طمانينة العلم بينهم بجانب الدين — تساهلا من العلم مع الدين ، لا تسامحا من الدين مع العلم ، بعدما كان بينهما من الحوادث ما كان ، وبعد غلبة العلم واستيلائه على عرش السلطان فى جميع الممالك ورضاء الدين بأن يكون تابعا له فى أغلبهـــا ٠

اقتبـــاس أوربا من مدنية الاسلام

السبب الأول : الجمعيات

كان جلاد بين العلم والدين فى أوربا وتألفت لنصرة العـلم جمعيات وأحزاب ، منها ما اتخذ السر حجابا له حتى يقوى ٠ ومنها ما ابتدأ بالمجاهرة ٠ وكان الدين يظفـر بالعـلم كمـا سبق بيانه ، لكثرة أعوانه وضعف أعوان العــلم ، حتى أشرقت الآداب المحمدية على تلك البلاد من سماء الأندلس ، وتبـع اشراق تلك الآداب واشتغال الناس بها سطوع نور العلم العربى من الجانب الشرقى كما ذكرنا ٠ وقد وجد هذان النوران استعدادا من النفوس للاستضاءة بهما فى السبيل التى تؤدى بهما الى المدنية التى كـانا يمثلانها ٠ هذا الاستعداد كسبته الأنفس بمـا ضـايقها من غـلو رؤساء الدين فى استعمال سلطانهم ، واشـتدادهم فى اسـتعباد العقل والوجدان حتى ضاق ذرع الفطرة عن الاحتمـال ، فأخـذ الشعور الانسانى يتلمس السبيل الى الخلاص ، واذا لاح له هذان النوران اتخذهما له هداية ، واستقبلهما بوجهه ٠ وكان بعد ذلك ما كان من تاثير الدين لأهل العلم واحراقهم بالنيران ، ونفيهم من الأوطان ، ومقاومة رؤســاء الدين للحـكومات ولأهـل الأفـكار

المستقلة ، فى أدنى الأشياء واعلاها ، حتى أنه عنـدما شرع ملوك فرنسا فى فرش باريس بالبلاط على الأسـلوب الذى وجـدوه فى مدينة قرطبة ، وصدر الأمر بمنع تربية الخنازير فى تلك الشوارع ، اغضب ذلك قسس القديس أنطوان • ونادوا بأن خنازير القـديس لابد أن تمر فى الشوارع على حريتها الأولى ، وحصل لذلك شغب عظيم اضطر الحكومة أن تسمح بذلك مع صدور الأمر بأن توضع فى أعناقها أجراس • وقالوا ان الملك فيليب السمين مات بسقطة عن فرسه عندما انزعج الفرس من منظر خنزير وصلصة الجرس فى عنقه •

لقائل أن يقول : أن القسس فى ذلك الزمان كان يمكنهم أن يمتنعوا من وضع الاجراس فى أعناق الخنازير فرضاهم بذلك يعد تسامحا عظيما مع العلم (أو الصناعة) •

ويسهل على أن أوافقه على أن مثل هذا الضرب من التسامح فى أجراس الخنازير كان يظهر من حين الى حين ، الا أنه فيما أظن لا يكفى فى تشييد هذه المدينة التى يفتخر بها الأوربيون اليوم ونحن لا نبخسها قدرها كذلك •

السبب الثانى : الضغط الدينى

شدة الحاجة وغلو الرؤساء كانا يوقدان الغيرة فى قلوب طلاب العلوم فلم تفتر لهم همة ، فمعظم أمرهم واكتشفوا كثيرا من الحقائق التى نفعت العـامة ونبهت العقول للاخذ بمـا يهتدون اليه ، وصارت الحرب بينهم وبين رؤساء الدين سجالا ، الى أن ظهر دعاة الاصلاح الدينى « البروتستانت » فانضـم دعاة العلم اليهم ظنا منهم أن سيكونون معهم من المجاهدين فى سبيل العلم • وكان منهم « ايراسم » الشهير ، فلما انتصر طلاب الاصلاح ودالت لهم دولة استمروا يعاقبون بالموت على الأفكار التى تخالف ظاهر

ما يعتقدون كما تقدم ، فانفصل أيراسم ومن معه من حماية الحرية واستقلال الارادة الشخصية ، وترك المصلحين يتفرقون شيعا ويقتل بعضهم بعضا ، وقال : ما كنت أظن أن دعاة الاصلاح يكونون كذلك أعداء العلم ٠

هذه الطوائف التى تفرقت عقائدها فى الاصلاح لم تنتظر الا أن تأمن من عدوها العام ، وهو الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، فلما أمنتها أخذ بعضها يصول على بعض ، واشتعلت نيران الحروب بينهم ٠ قال أحد أفاضل مؤرخيهم « وكلما ارتفعت طائفة منهم الى عرش القوة ، لوثت يديها بالجرائم فى العمل لافناء البقية ، حتى سئمت النفوس دوام تلك الحال ، ووجدت من توالى حوادث الانتقام وظهور مضاره فى كل طائفة أن الأفضل لكل طائفة أن تمنح الأخرى من الحرية مالا تستغنى عنه واحدة منهما ، والعلم كان يعمل عمله فى كشف الحقائق وترقية الآداب ، وكان من أقـوى المنبهات الى مضار الحروب ومفاسد العدوان على حرية الأشخاص ، من أية طائفة كانت ، من هذا نشأ ذلك الأصل العظيم : أصل التسامح والرضا بمجاورة المخالف فى الرأى : نشأ من القهر والقسوة التى كانت كل طائفة تعامل بها الأخرى » انتهى كلام المؤرخ بالمعنى ٠

السبب الثالث : الثورة

ولا حاجة بى الى ذكر ما جاءت به الثورة الفرنسية وكيف كانت قيامتها على الدين ورؤسـائه مما هو معلوم ، وانما انبه القارىء الى الاعتبار بما تقدم من القول ، وبما يمكنه ان يقف عليه فى كتب القوم ، ليعلم ان الدين المسيحى فى أوربا لم يحتمل العلم فضلا وكرما ، وانما قويت عليه احزاب العلم فسـاموه استكانة وخضوعا ، ولو شاء الا يحتمل لم يستطع الى ذلك سبيلا ٠

السبب الرابع : ترك المسيحية

رؤساء الدين المسيحى رجال ذوو عزيمة واقدام وغيرة على دينهم ، قلما يدانيهم فيها رؤساء دين من الاديان ، وهم مع غلوهم فى الدين واشتدادهم فى استعمال سلطانهم على النفوس ، كانوا ولا يزالون يتخذون كل وسيلة لتأييد دينهم ، وهم اشد الناس حرصا على تقويم أركانه ودفع الشبه عنه ، ولم يزدهم العلم الجديد الا وسائل وسبلا لترويج عقائده وآدابه ، ولم تفتر همـــة فى نشره وتزيينه للقلوب ، ومع ذلك كله نرى أن رجال العلم وحماة المدنية يتسللون منه ، والعامة من الشعوب فى تخاذل عنه • والأمـــة الفرنسية ـ التى كانت تدعى بنت الكنيسة ـ أصبحت من أشـــد الناس عليه ، ورأت فلسفتها أن تحدد حرية أهل الدين فى تعاليمهم واجتماعهم : كل ذلك ومدارس اللاهوت لا تزال عامرة ، وطلاب اللاهوت يعدون بالألوف ، كل ذلك وكثير من الدول يرى من مزاياها حماية الدين المسيحى فى اقطار الأرض •

قال احد رؤساء البروتستانت ـ فى خطبة من خطبـه التى القاها فى بعض البلاد الفرنسية سنة ١٩٠١ ، بعد كلام له فى أن المسيحية رومانية أو بروتستانتية فقدت خاصتها الدينية كما فقدت فائدتها الاجتماعية ـ مانصه مترجما : « اذا كان الدين المسيحى ليس شيئا سوى الكثلكة المحتاجة الى الاصلاح (المذهب الرومانى) او الكثلكة التى دخلها الاصلاح بالفعل (المذهب البروتستانتى) فالقرن الموفى للعشرين (القرن الحاضر) لا يكون مسيحيا ابدا » •

وقد جاء فى كلام هذا الخطيب ما يصرح بانه يريد أن يطلب للمسيحية معنى آخر ينطبق كل الانطباق على اعتقاد المســـلمين فيها ، فان وفق للنجاح فى سعيه زال الخلاف ـ ان شاء الله ـ بين الدين والعلم ، بل بين المسيحية والاسلام •

عود الى سماحة الاسلام

آخذ بيد القارىء الآن ، وأرجع به الى ما مضى من الزمان ، واقف وقفة بين يدى خلفاء بنى أمية والائمة من بنى العباس ووزرائهم ــ والفقهاء والمتكلمون والمحدثون والائمة المجتهدون من حولهم ، والأدباء والمؤرخون والاطباء والفلكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون وسائر أهل النظر من كل قبيل مطيفون بهم ، وكل مقبل على عمله ، فاذا فرغ عامل من العمل أقبل على أخيه ووضع يده فى يده ، يصافح الفقيه المتكلم والمحدث الطبيب والمجتهد الرياضى والحكيم ، وكل يرى فى صاحبه عونا على ما يشتغل هو به ــ وهكذا ادخل به بيتا من بيوت العلم فاجد جميع هؤلاء سواء فى ذلك البيت يتحادثون ويتباحثون ، والامام البخارى حافظ السنة بين يدى عمران بن حطان الخارجى ياخذ عنه الحديث ، وعمرو بن عبيد رئيس المعتزلة بين يدى الحسن البصرى شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه ، وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل « لقد سالت عن رجل كأن الملائكة ادبته ، وكأن الانبياء ربته ، ان قام بأمر قعد به ، وان قعد بأمر قام به ، وان أمر بشىء كان الزم الناس له ، وان نهى عن شىء كان اترك الناس له ، ما رأيت ظاهرا أشبه بباطن منه ، ولا باطنا أشبه بظاهر منه » •

بل أرفع بصرى فاجد الامام ابا حنيفة امام الامام زيد بن على (صاحب مذهب الزيدية من الشيعة) يتعلم منه اصول العقائد والفقه ، ولا يجد احدهم من الآخر الا ما يجد صاحب الرأى فى حادثة ممن ينازعه فيه اجتهادا فى بيان المصلحة ، وهما من أهل بيت واحد ــ أمر به بين تلك الصفوف التى كانت تختلف وجهتها فى الطلب وغايتها واحدة وهى العلم ، وعقيدة كل واحد منهم أن فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة كما ورد فى بعض الاحاديث •

الخلفاء أئمة فى الدين مجتهدون وبأيديهم القوة وتحت أمرهم الجيش ، والفقهاء والمحدثون والمتكلمون ، والائمــــة المجتهدون الآخرون هم قادة أهل الدين ومن جند الخلفاء ، الدين فى قوته والعقيدة فى أوج سلطانها ، وسائر العلماء ممن ذكــرنا بعدهم يتمتعون فى أكنافهم بالخير والسعادة ورفه العيش وحرية الفكر ، لا فرق فى ذلك بين من كان من دينهم ومن كان من دين آخر ، فهنالك يشير القارىء المنصف الى اولئك المسلمين ، وانصار ذلك الدين ، ويقول : ههنا يطلق اسم التسامح مع العلم فى حقيقته ، ههنـــا يوصف الدين بالكرم والحلم ، ههنا يعرف كيف يتفــق الدين مــع المدنية عن هؤلاء العلماء الحكماء تؤخذ فنون الحرية فى النظر ، ومنهم تهبط روح المسالمة بين العقل والوجدان (أو بين العقل والقلب كما يقولون) ·

يرى القارىء انه لم يكن جلاد بين العلم والدين · وانما كان بين أهل العلم وبين اهل الدين شىء من التخالف فى الآراء ، شأن الاحرار فى الأفكار الذين اطلقوا من غل التقييد ، وعوفوا من علة التقليد ، ولم يكن يجرى فيما بينهم اللمز والتنابز بالالقاب ، فلا يقول أحد منهم لآخر أنه زنديق أو كافر أو مبتدع ، أو ما يشبه ذلك · ولا تتناول احدا منهم يد بأذى ، الا اذا خرج عن نظام الجماعة ، وطلب الاخلال بأمن العامة ، فكان كالعضو المجذوم فيقطع ليذهب ضرره عن البدن كله ·

ملازمة العلم للدين

ودعوى التعصب فى المسلمين

متى ولع المسلمون بالتكفير والتفسيق ورمى زيد بانه مبتدع وعمرو بأنه زنديق ؟

أشرنا فيما سبق الى مبدأ هذا المرض ، ونقول الآن : ان ذلك بدأ فيهم عندما بدأ الضعف فى الدين يظهر بينهم ، وأكلت الفتن أهل البصيرة من أهله ــ تلك الفتن التى كان يثيرها أعداء الدين فى الشرق وفى المغرب لخفض سلطانه ، وتوهين أركانه ــ وتصدر للقول فى الدين برأيه من لم تمتزج روحه بروح الدين ، وأخذ المسلمون يظنون أن من البدع فى الدين ما يحسن أحداثه لتعظيم شأنه تقليدا لما كان بين أيديهم من الأمم المسيحية وغيرها • وانشئوا ينسـون ماضى الـدين ومقـالات سلفهم فيه ، ويكتفون برأى من يرونه من المتصدرين المتعالمين ، وتولى شئون المسلمين جهالهم ، وقام بارشادهم فى الاغلب ضلالهم ، فى أثناء ذلك حدث الغلو فى الدين ، واستعرت نيران العداوات بين النظار فيه ، وسهل على كل منهم لجهله بدينه أن يرمى الآخر بالمروق منه لادنى سبب ، وكلما أزدادوا جهلا بدينهم ازدادوا غلوا فيه بالباطل ودخل العلم والفكر والنظر (وهى لوازم الدين الاسلامى) فى جملة ماكرهوه ، وأنقلب عندهم ما كان واجبا من الدين محظورا فيه •

لا أكاد أخطىء القارىء اذا زعم أن المسلم انما استفاد اسـم زندقة وتزندق ومتزندق وزنديق من فضل ما علمه جيرانه اذ كانوا يقولون : هرتقه وتهرتق وهو هرتوقى : أو ما يماثل ذلك ــ أو زعم أن قد فشت فى المسلمين سرعة التفكير بطريق العدوى من أهل الملل المتشددة • وان الذى سهل سريان العدوى بتلك السرعة الشديدة هو ضعف المزاج الدينى عند المسلمين بجهلهم بأصوله ومقوماته ، ومتى ضعف المزاج استعد لقبول المرض كما هو معلوم •

ان المسلمين لما كانوا علماء فى دينهم كانوا علماء الكون وأئمة العالم ، ولما أصيبوا بمرض الجهل بدينهم انهزموا من الوجـــود وأصبحوا أكلة الآكل ، وطعمة الطاعم ، هل وقف الجهل بالمسلمين عند تكفير من يخالفهم فى مسائل الدين أو يذهب مذهب الفلاسفة

او ما يقرب من ذلك ؟ لا ، بل عدا بهم الجهل على ائمة الدين ، وخدمة السنة والكتاب ، فقد حملت كتب الامام الغزالى الى غرناطة وبعد ما انتفع بها المسلمون ازمانا هاج الجهل بأهل تلك المدينة وانطلقت ألسنة المتعالمين من البربر بتفسيقه وتضليله ، فجمعت تلك الكتب خصوصا نسخ « احياء علوم الدين » ووضعت فى الشارع العام فى المدينة واحرقت • قال قوم يعدون أنفسهم مسلمين فى ابن تيمية ـ وهو أعلم الناس بالسنة واشدهم غيرة على الدين ـ : انه ضال مضل • وجاء على أثر هؤلاء مقلدون يملئون افواههم بهذه الشتائم وعليهم اثمها واثم من يقفوهم بها الى يوم القيامة •

اهمال آثار السلف

أهمل المسلمون دينهم ، والنظر فى أقوال سلفهم ، حتى انك لا تجد اليوم فى أيديهم كتابا من كتب أبى الحسن الأشعرى ولا أبى منصور الماتريدى ، ولا تكاد ترى مؤلفا من مؤلفات أبى بكر الباقلانى أو أبى اسحاق الاسفراييني ، واذا بحثت عن كتب هؤلاء الأئمة فى مكاتب المسلمين أعياك البحث ، ولا تكاد تجد نسخة صحيحة من كتاب •

كتب على القرآن تفاسير كثيرة فى القرن الثالث من الهجرة وما بعده الى السادس • منها تفسير الطبرى وتفسير أبى مسلم الاصفهانى وتفسير القرطبى وتفسير الجصاص وتفسير الغزالى وتفسير أبى بكر بن العربى وكثير غيرها وفيها من آراء اولئك الأئمة ووجوه استنباط الحكم والاحكام مالا غنى لطالب علم الدين عنه ، فهل يجد الباحث المجد نسخة من هذه الكتب الجليلة يمكن الوثوق بصحتها الا بطريق المصادفة وحسن الاتفاق ؟ وهل يليق بأمة تدعى انها على دين ، وان لها فيه سلفا ، ان تهجر آثار سلفها ، وتدع ما كتبوا طعمة للعث وفراشا للتراب ؟ هل وقع مثل ذلك من المشتغلين باللاهوت المسيحى فى زمن من الأزمان ؟

ان حالة طلبة العلوم الدينية الاسلامية أصبحت مما يرثى له في أكثر بلاد المسلمين ، فهم لا يقرءون من كتب الكلام الا مختصرات مما كتب المتأخرون • يتعلم أذكاهم منها ما تدل عليه عباراتها ، ولا يستطيع أن يتعلم البحث في أدلتها ، وتصحيح مقدماتها ، وتمييز صحيحها من باطلها ، وانما يتلقاها كأنها كتاب الله أو كلام نبيه صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ ما فيها بالتسليم • فاذا ناظره مناظر في بعض قضاياها وعجز عن تصحيحه قطع الجدال بقوله : هكذا قالوا • وان لم يكن القول متفقا عليه • بل قد يكون القول مما لم يقل به سوى صاحب الكتاب الذي اشتغل به ، وربما كان صاحب الكتاب ممن لو رآه أحد من السلف لم يرضه تلميذا يعي عنه ما يقول •

كاد ينقطع طلب العلوم الدينية في سورية والحجاز وتونس والجزائر ، وقل جدا في المغرب الاقصى ، ولم يبق الاهتمام به الا في بعض الصحارى ، وذلك اما لصعوبة طرق التعليم ، واقتضائها الزمن الطويل ــ وحاجات الناس مانعة لهم من افناء أعمارهم في عمل لايسد من حاجتهم ــ واما لتفضيل الآباء تربية أبنائهم على الطرق الحديثة في أوربا أو في المدارس الأخرى وليس فيها من الدين شيء ، وان كان فيها شيء منه فهو مما لايعد تعليما دينيا ينظر اليه ــ واما للفتور والخمود ، اللذين نشأ عن التقليد والجمود • وبذلك تجد المسلمين قد تولاهم الجهل بدينهم ، وأخذتهم البدع من جميع جوانبهم ، وانقطعت الصلة الحقيقية بينهم وبين سلفهم ، حتى لو عرض على الجمهور الأعظم منهم ما اتفق عليه السلف من الاحكام لأنكروه واستغربوه وعدوه بدعة في الدين • وصح فيهم ما قال عمر الخيام في بعض اشعار الفارسية مخاطبا للنبي عليه الصلاة والسلام « ان الذين جاءوا بعدك زينوا لك دينك ووضوه وزركشوه حتى لو رأيته انت لانكرته » •

فهذا الصنف من المسلمين ــ وهو معظمهم ــ قد أنكر دينه الحق وعاداه ، ونقم على أهله القائمين بخدمته ، وانما اصطفى

لاعتقاده بعض افراد لم يعرف عن السلف اختصاصهم بالثقة . ولم يسمح الدين باختصاصهم بالتقليد ، فاذا وقع من هذا الصنف ما فيه أذى للعلم وأهله ، فهل يعد ذلك واقعا من دين الاسلام ـ دين محمد صلى الله عليه وسلم ـ دين القرآن ـ دين السنة الثابتة ـ دين الخلفاء الراشدين ، ومن تبعهم من السلف الأولين ؟

متابعة العلم للاسلام ومباينته لسواه

الحق أقول ـ والحس يؤيدني : ما عادوا العلم ولا العلم عاداهم الا من يوم انحرافهم عن دينهم ، وأخذهم في الصد عن علمه ، فكلما بعد عنهم علم الدين بعد عنهم علم الدنيا وحرموا ثمار العقل • وكانوا كلما توسعوا في العلوم الدينية ، توسعوا في العلوم الكونية ، وضربوا الزمان بسوط من العزة ، وأما العلم وتجهمهم واكفهر وجهه للقائهم ، وكلما بعدوا من الدين سالمهم العلم وبش في وجوههم • ولذلك يصرحون بأن العلم من ثمار العقل ، والعقل لا يصح أن يكون له في الدين عمل ، ولا أن يظهر منه فيه اثر ، والدين من وجدانات القلب ، ولا علاقة بين ما يجد القلب وما يكسب العقل • فالفصل تام بين العقل والدين ، ولا سبيل الى الجمع بينهما : سامحهم الله فيما يسمونه تسامحا مع العلم ، وهم يصرحون بانه عدوه الذي يستحيل أن يكون بينه وبينه سلم •

هل عرفت السبب في اضطهاد المسلمين للعلم ؟ أقول « اضطهاد » ولا أريد به ما كان عند الامم المسيحية من الاشتداد في ابادة أهله والتنكيل بهم ، واختراع ضروب التعذيب ، والتفنن في صنع آلات الهلاك ، مع الأخذ بالشبهة ، والاكتفاء في الاعدام بمجرد التهمة ، فان ذلك لم يقع عند المسلمين لا أيام علمهم ، ولا في أزمنة جهلهم ، ولكن أريد من الاضطهاد الاعراض عن العلم ، ورمي الألفاظ السخيفة في وجوه أهله ، وقذفهم بشيء من الشتائم مع الابتعاد عنهم •

لا ريب انك قد ايقنت بأن السبب فى هذا الذى يسميه الأديب اضطهادا ـ انما هو جهلهم بدينهم • فالدواء الذى ينجح فى شفائهم من هذا الداء لا يكون الا ردهم الى العلم بدينهم ، والتبصر فيه ، للوقوف على أسراره والوصول الى حقيقة ما يدعو اليه ، كان الدين واسطة التعارف بينهم وبين العلم ، فلما ذهبت الواسطة تناكرت النفوس وتبدل الانس وحشة •

الدعاة فى الاسلام

فهل قام بينهم دعاة للعلم حقيقيون ، أو دعاة لاصل الدين عارفون ، ثم استعصت قلوب المسلمين عليهم ، وجمحت نفوسهم عن الانقياد لهم ؟ وهل كثر أولئك الدعاة فى أطراف بلاد المسلمين كثرتهم فى أوربا من أواسط القرن السابع عشر من التاريخ المسيحى الى أن ظهرت قوة العلم فى أوائل القرن السابع عشر وفيما بعد ذلك ؟ لا • انما رأينا من الصادقين أفرادا يظهرون متفرقين فى عصور مختلفة ، ربما لا يجتمع أربعة منهم ـ فما يزيد ـ فى قرن واحد ، ويأخذون فى العمل لما وجهوا اليه ، ثم لا يكادون ينطقون ببعض الكلم ، فيحس الناس بهم ، فيأخذ المستعد أهبته لمفارقة ما كان عليه واتباعهم حتى تشعر السياسة (نعوذ بالله منها) بما عسى أن يكون من أمرهم فتخمد انفاسهم ، قبل ان يبلغوا من قلب أحد ما أرادوا من غرس أفكارهم ، فينطفىء النور ، ويدلهم الديجور •

فهل يعد الأديب هذه الضربات من أيدى أرباب السياسة اضطهادا للعلم لاجل حماية الدين ؟ أنزه كل أديب عن أن يظن ذلك ، وانما هى صدمات تقع على الدين لا تختلف عن أمثالها مما يصيبه منهم مباشرة ، فلا تعد حجة على الدين فى نظر المنصف •

المقلد دون المقلد

ربما يقول القائل : ان كان المسلمون قد أخذوا الجمود فى

التقليد والنفرة من العلم والاعتقاد بالعداوة بين الدنيا والآخرة وبين العقل والدين وما اشبه ذلك مما هم فيه ، وورثوه عن الأمم السابقة عليهم خصوصا أقرب الملل اليهم • فما بالهم لم يقلدوا المسيحيين فى الحرص على نشر دينهم ، والتوسع فى علومه مذيلا بما أخذوه عنهم ، ولم يقسموا أنفسهم قسمين كما قسم المسيحيون اخوانهم قسمين : قسما ينقطع الى الآخرة فى الاديار والصوامع ، وقسما يشتغل بالدنيا ليقيت نفسه ويقيت أهل القسم الأول ، ويحمى نفسه ويحميهم من العدوان ؟ ومالك ترى المسلمين خملوا وارتخت أعصابهم وسئموا النظر فى علوم دينهم كما ذكرت ، ثم صاروا أبعد الناس عن معرفة الطرق لتحصيل الغنى والثروة ، والقبض على ناصية القوة وصولجان العزة ؟ وطرحوا أنفسهم فى تيار من القدر كما يقولون ، يجرى بهم الى حيث لا يعلمون ؟ ثم هم مع ذلك أحرص الناس على حياة ، واشدهم لهفا على الحطام ، فلا ترى الجمهور منهم فى شىء للدين ولا للدنيا فما هذا التناقض ؟

فأقول له : انك قد نسيت أن المقلد يكون دائما أحط حالا وأخس منزلة من المقلد • فالمقلد انما ينظر من عمل المقلد الى ظاهره ولا يدرى سره ولا مابنى عليه • فهو يعمل على غير نظام ، ويأخذ الأمر لا على قاعدة ، ولذلك سقط المسلمون فى شر مما كان عليه مقلدوهم ، لا سيما انهم قد خلطوا فى التقليد وأضافوا الى دينهم مالا يمكن أن يتفق معه ، فصاروا فى مثل حال المتخبط الذى تنازعه عدة قوى يذهب مع كل منها آنا ثم ينتهى أمره بعد الخيبة بالتعب الشديد ، فيستلقى الى أن يستريح ، فينهض الى العمل على هدى أو يموت •

لما كان المسلمون علماء كانت لهم عينان : عين تنظر الى الدنيا والأخرى تنظر الى الآخرة ، فلما طفقوا يقلدون أغمضوا احدى العينين ، واقذوا الأخرى بما هو أجنبى عنهم ، ففقدوا المطلبين ، ولن يجدوهما الا بفتح ما أغمضوا ، وتطهير ما اقذوا •

الاصلاح والمصلحون

للقائل ان يقول : كيف تدعى ان دعاة العلم والدين قليل بين المسلمين مع اننا نسمع أصواتهم تتلاقى فى جو مصر وسورية وغيرهما من البلاد فى هذه الأيام ؟ كل يقول : دينى ملتى ، اسلام مسلمون ، قرآن سنة ، مجد الاسلام القديم ، سلفه الصالحون ، تعلم ، تعليم ، كتب قديمة كتب جديدة ، وما يشاكل ذلك مما يظهر منه أن الداعين الى العلم أو المنبهين الى الأخذ بأصول الدين الاسلامى كثيرون ، ولا نرى مع ذلك من أغلب المسلمين الا آذانا صما وأعينا عميا ، وصدا عما يدعو اليه هؤلاء ؟

ويمكننى أن أقول له : ان الصادق فى هؤلاء ليس بكثير عده ، والجمهور منهم قلما يخلص قصده ، وما تجد اكثرهم الا متجرين بهذه الكلمات ، لكسب بعض دريهمات ، ويظهر لك ذلك من انهم يلفظون هذه الاسماء وقلما يدرسون شيئا من مدلولاتها ليقفوا على الحقيقة منه ، وانما يلقف بعضهم عن بعض ظواهر كالزبد لا تمكث فى الأرض • وأما الصادقون على قلتهم فقد بدأ بعض الناس يسمعون ما يقولون ، ويطلبون الرشاد مما يعلمون ، خصوصا فى أمر الدين والجمع بينه وبين مصالح الدنيا ، ولا سيما فى بلاد الهند وبين مسلمى روسيا • ولكن الاصلاح ليس ريحا تهب فتمسح الأرض من الشرق الى الغرب فى وقت قريب فانتظر •

قد يقول القائل : لم لم يكثر هؤلاء كثرتهم بين الأوربيين فيما مضى ، حتى يغلبوا الظالمين من اهل السياسة ويستميلوا العادلين منهم اليهم ، وينهضوا بالمسلمين من هذه الرقدة التى طال أمدها عليهم ؟ ولم لا يزال أهل البصيرة منهم قليلين متفرقين يهمسون بالقول ولا يجهرون ، وليس للعلم فيهم دعاة عمليون ؟ أليس ذلك سبيلا لمؤاخذة الاسلام وحجة عليه ؟

واقول له : ان حظ المسلمين لا يصح أن يكون أسعد من حظ مقلديهم ، بل المنتظر أن يكون أتعس ، وقد أقامت المسيحية ما يزيد على الف سنة قبل أن يظهر فيها العلم ، أو تنشأ الحرية الشخصية ، أو تسرى فيها الحركة العلمية ، الى ما فيه صلاح الجمعية الانسانية ، مع توالى المنبهات ، وتواصل الصدمات اثر الصدمات ، ولم يمض على المسلمين من يوم استحكمت فيهم البدعة ، وأطبقت عليهم ظلم المحدثات ، ودخلوا جحر الضب الذى دخله من كان قبلهم الا أقل من ثمانمائة سنة ، فلم يمض عليهم وهم فى بدعهم الجديد ، ذلك الزمن الذى قد يكون عمرا لمثل هذه الحالة ، ثم تقضى نحبها فى آخره • وما أظن أن يمر على المسلمين مثل تلك المدة قبل أن يبلغوا من صلاح الدين والدنيا ماهم أهل له •

الفرق بين التعصبين

وعلى كل حال لا يجوز فى شريعة الانصاف أن يذكر المسلمون فى جانب جمهور المسيحيين اذا ذكر الغلو فى التعصب الدينى فضلا عن أن يقال أن المسلمين أشد افراطا فيه • والشاهد يدلنا على انه قد يكون للمسلمين فى التعصب الفاظ وكلمات ، ولكن الذى يكون من جمهور المسيحيين انما هو أعمال وضربات فى المعاملات ، وما على طالب الحقيقة الا ان يسيح بفكره فى مثل المستعمرات الهولاندية فى الشرق • ومملكة الترنسفال قبل سقوطها ، وبلاد الناتال فى الجنوب، ثم يرجع الى بعض بلاد الروسيا فى الشمال من قبل عشرين سنة ، ثم يرجع الى الجزائر وما يليها فى جهة الغرب ، ليعلم كيف تكون الشدة فى المعاملة مع غير أهل المذاهب المسـيحية ، وكيف يبلغ التعصب من أهله حدا تنظر اليهم فيه الانسانية شزرا ، ولا تقبل لهم فيه المدنية عذرا •

ما على الباحث الا أن ينظر فيما يكتبه الكتاب الفرنسيون ليعلم انهم فى حيرة من أمرهم مع المسلمين ، يريدون أن تكون لحكومتهم طمأنينة فيما ملكت من بلاد المسلمين ولكن حكومتهم لا تجد السبيل اليها مع ما اتخذته قاعدة لعملها وهو الشدة والافراط فى القسوة على المسلمين خاصة وحدهم دون سواهم ، وأرباب الاقلام يبحثون عن تلك الطمأنينة مع المحافظة على تلك القسوة ، ويأبى الله أن على ما يبحثون عنه ، لانهم يطلبون الجمع بين الضدين فى موضوع واحد وهو محال كما يقرره فلاسفتهم (١) •

---

(١) آخر ما استقر عليه رأيهم وشرعت دولتهم في تنفيذه هو اخراج المسلمين من دينهم ولغتهم (العربية) بكل ما يمكن من وسائل العلم والتعليم والاكراه والاجبار وعدم تمكينهم مع ذلك من تعلم العلوم الطبيعية والاجتماعية والقانونية لئلا يطالبوا بالاستقلال الوطنى أو المالى ، وقد حدث فى الماضى أن أكرهوا سلطان المغرب على توقيع مرسوم يخول الحكومة الفرنسية الحامية له تنفيذ ذلك فى شعب البربر ، فانشأت لهم قانونا بربريا بعيدا عن الشريعة الاسلامية بعد الكفر عن الايمان فى الأحكام الزوجية والارث وغير ذلك ، ومدارس تعلمهم بها دين النصرانية باللغة الفرنسية ، واللغة البربرية بالحروف اللاتينية ، وتحرم عليهم تعلم اللغة العربية والديانة الاسلامية ، حتى اذا ما تم لها اخراج البربر من الاسلام أكرهت العرب على ذلك ومن أبى تطرده من البلاد • وأما ايطالية الكاثوليكية الموالية للبابا فقد حاولت حين احتلالها ليبيا استئصال المسلمين من قطر طرابلس الغرب وبرقة وجعل بقايا أطفالهم ايطاليين كاثوليكيين بالقوة القاهرة تنكيلا وتقتيلا !! (والله أشد تنكيلا) وفى الجزائر وتونس فرضت اللغة الفرنسية على الأهالى ، وحرمت التعليم باللغة العربية ، وحاربت المدارس الأهلية الاسلامية ، واضطهدت علماء المسلمين حتى هاجر الكثيرون من بلادهم الى مصر وسورية •

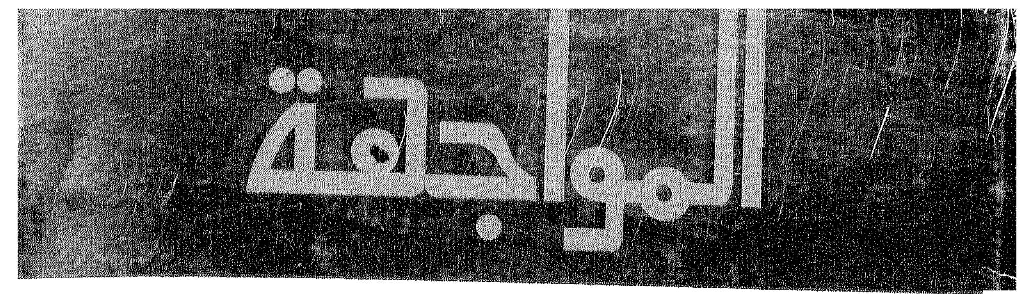
الفهـــرس

الموضوع	الصفحة



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

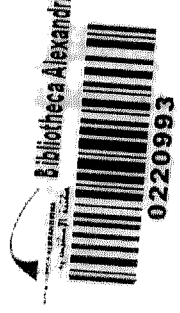




بلغت مؤامرات التطرف والارهاب فى مصر معدلات غير مسبوقة خلال السنة الاخيرة . ولم تعد هذه الظاهرة مجرد تهديد للدولة والنظام الحاكم ، بل اصبحت تهدد المجتمع المصرى كله ، سواء فى بنيته الداخلية او فى اقتصاده او امنه الاجتماعى والسياسى ومكتسباته الثقافية والفكرية ، وكذلك انجازاته الاقتصادية والمادية . ولا تقل الحرب التى يشنها المتطرفون والارهابيون ضراوة عن اى حرب خاضتها مصر مع اعدائها الخارجيين فى هذا القرن . بل ربما كانت هذه الحرب اشد ضراوة ، لأن احد اطرافها هم ابناء لنا ، اعماهم التطرف : فاختاروا العنف سبيلا لفرض إرادتهم وزعزعة استقرار الوطن : واستهدف عنفهم ابناء لنا فى اجهزة الامن ، او اخوة لنا من المدنيين المسالمين العزل ، مسلمين واقباطا.

ان ما تمر به مصر الآن هو ماساة إنسانية وثقافية وحضارية ، وكارثة إقتصادية وسياسية ولذلك اصبح من الضرورى أن ينتفض المثقفون المصريون ، ومؤسسات مجتمعهم المدنى ، للوقوف فى وجه التطرف والارهاب لمحاصرتهما واحتوائهما ، تمهيدا لاقتلاعهما تماما .

من اجل هذا تصدر الهيئة المصرية العامة للكتاب المصريين هذه السلسلة للوقوف امام هذه الظاهرة بالفكر ا الحق الشريفة .



الثمن خمسون قرشا

الغلاف للفنان : محمود الهندى